نشيدُ الكون

تيار ده شاردن



نشيد الكون

القدّاس على العالم

ثلاث قصص على طريقة بنسن

قوّة المادّة الروحيّة

خواطر اختارتها فرناند ترديقل

نقله الى العربيّة

الأب اغناطيوس عبده خليفة اليسوعي

والخوري فرنسيس البيسري

الطبعة الثالثة



دار المشرق ش م م - بيروت

فليطبع
بيروت، في ١٩٦٨/٧/٦

الحقير
اغناطيوس زيادة
مطران بيروت

ظهر هذا الكتاب بالفرنسية تحت عنوان:
Pierre Theilhard de Chardin
Hymne de l'univers
Éditions du Seuil, Paris

ISBN 2-7214-4894-3

دار المشرق ش.م.م. - ص.ب. ٩٤٦، بيروت - لبنان

التوزيع: المكتبة الشرقيّة
جسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ١٩٨٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٩٢١١٢ - ٤٨٥٧٩٣/٤/٥ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ (٠١)
Email: libor@cyberia.net.lb

مقدّمة

نشوة الحياة . نشوة الوجود تكمن فيه طاقات كونيّة ، فيثب من خلالها الى الله وهو يستدعيه دوماً الى تجاوز الحدود ، الى حيث الدعوة الأولى والغاية .

نشوة الوجود . نشوة التطلّع الى آيات الطبيعة ، رمز بهاء الخالق الذي يسكب عليها من جماله جمالاً ومن طهره طهراً ، وكأني بها تتوق إلى التفتّق عن طاقة تحمل الإنسان إلى عبادة أسمى وإلى تمجيد مستمرّ .

نشوة التبصّر . نشوة تفهّم المادّة وهي تتروحن رويداً رويداً من خلال الإنسان . فهي له علامة ووسيط ، وهو لها العقل النيّر ، يقودها إلى ما وراء الآفاق الضيّقة والأماني الشاحبة ، إذ يرى ، وقد أنارَه نورٌ من علُ ، الحضرةَ الإلهية بين طيّات الفناء تسكب فيها من خير الوجود جوهراً سنياً وتُنمي فيها سيراً إلى الديمومة في تجديد أرض وتجديد سماء بالعودة إلى كمال

كينونة ، حيث الإنسان ، وقد أُطلق من كلّ عبوديّة ، يصفو لرؤياها في الصانع الاوّل شفّافةً أصيلة ، بينه وبينها أصالةُ الأصل ووسمُ المبدع .

•

وفي هذه النشوة ايمان بأن الحياةَ تنبع من الحياة التي لا ينضب معينها ، تجسّدت وتأنسنت وصارت ، في مغامرة البشرية ، المحور الأوحد للكون وللانسان ، والجاذب الذي بدونه تستأثر الخليقة بنفسها وتظلّ دون الكمال في تضعضع وأسى ، في حيرة وفراغ .

والايمان هديٌ ومنارة لسبر أغوار الخليقة للتوصّل الى حقيقتها التي هي عمل الله المتواصل وهو فيها حبٌّ ، والحبّ تبديل وتطوير ووصال . فتبدو الخليقة اذاك وكأنها في يد الانسان رهنُ فكره ونشاطه ، ترجو الاّ يتجنح بها الى تناقض عقيدة واصطراع إلحاد ، وتردّد عليه أن ليس له من سلطان عليها الاّ الذي أُعطيه من الخالق ليقيها مغبّة الاستعباد لإهواء الانغلاق والانكماش العقلي ولنزوات الأثرة .

•

والمؤمن تيّار ده شاردن الذي كتب «القداس على العالم» ، فانه كتبه إذ اضطرته الخلوة في صحروات «الأردس» الى التخلّي عن القيام بالذبيحة الإلهية . ففكّر وتأمّل وتبصّر وأعطانا في عصارة قول بشريّ مرتبك الهامات حدس يشفّ منها نور الحضرة الإلهية في القربان على كونٍ يتجمّع وينصهر فيها . فتصفو الى ما في كلامه من لألأة تميّز العقيدة المسيحية في شمولها وكونيّتها .

امّا القصص الثلاث على طريقة بنسن فان هي الا اقصوصات صوفية يعزوها المؤلف لصديق (ولربما هو نفسه ذلك الصديق) افضى اليه باختبارات تنمّ عن ان الستار الذي يحجب نظره عن كنه الخلق كان يرتفع رويداً رويداً ليتركه امام وجه المسيح الذي يشعّ من خلال كون عظيم متروحن .

وفي القسم الثالث من الكتاب هذا ، في تأمل بصورة تخيّلات وهميّة ، احبّ المؤلّف ان يقول لنا ما للمادة من قوّة روحية . فليست المادة روحية ولكنها قابلة التروحن وتطويرها يتعلّق بحرية الانسان التي يبني او التي يهدم ويستعبد .

وينتهي الكتاب على افكار شتّى استقاها المؤلّف ممّا كتبه سابقاً .

بيروت ـ البترون ، في ٢١ / ٦ / ٦٨

الخوري فرنسيس البيسري　　　　الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

نبذة تاريخيّة

وُلد ماري - جوزف - بيار تيّار ده شاردن في ١ ايّار ١٨٨١ في قصر سارسنا Sarcenat قرب اورسين Orcines ، في جوار كليرمون فرّان .

ربّته والدته تربية دينية عميقة ، ورسّخت في قلبه روح المحبّة والوداعة واحترام صوت الضمير . وأعطاه والده ، بثقافته الواسعة وحبّ الطبيعة اللتين اتصف بهما ، تلك الروح الوضعيّة في النظر الى الكون ومختلف اطواره .

في نيسان ١٨٩٢ دخل بيار مدرسة الآباء اليسوعيين في مونجره (Mongré) وساعده الحظّ ان يكون بين أساتذته الأب هنري برمون (Bremond) ، والأب ديريب (Desribes) الذي أنمى فيه حب علم الفيزياء .

انهى بيار دروسه سنة ١٨٩٨ .

في١٨٩٩ انتسب الى الرهبنة اليسوعية في اكس ان بروفنس (Aix-en-Provence).

في تشرين الأوّل ١٩٠٠ ابتدأ الدروس الأدبية العليا .

في ٢٥ أذار ١٩٠١ نذر نذوره الرهبانية الاولى .

في ١٩٠٢ نال الاجازة في الآداب من جامعة كان (Caen) .

وعندما نجحت سياسة كومب (Combes) اللادينيـــة في فرنسا اضطر الرهبان الى ترك وطنهم فذهب تيّار الى جرزه (Jersey) وظلّ هنالك الى سنة

١٩٠٥ منكبّاً على دروسه الفلسفية . وكان يقوم ببعض الرحلات العلمية في قلب الجزيرة الثريّة بالآثار القديمة .

في ايلول ١٩٠٥ أرسل تيار الى القاهرة ، يعلّم الكيمياء والفيزياء في مدرسة العائلة المقدّسة الى سنة ١٩٠٨ . وكان في اوقات فراغه يقوم برحلات علميّة لا تمتّ الى الكيمياء ولا الى الفيزياء بصلة . ولقد اكتشف اذاك علم طبقات الأرض وراح يجوب الفيّوم وصحراء مريوط والمنيا والمقطم مفتشاً منقباً .

في ١٩٠٨ كتب مقالاً عنوانه *L'Eocène des environs de Minieh* .

من ١٩٠٨ إلى ١٩١٢ درس العلوم اللاهوتية في هستنكس (Hastings) وقام برحلات دلّت على ان دعوته العلميّة كانت تتوطّد يوماً بعد يوم .

في ١٤ آب ١٩١٤ سيم كاهناً . حضر والداه السيامة الكهنوتية وتناولا من يده القربان المقدس يوم قداسه الاوّل .

تميّزت فترة دروسه اللاهوتيّة بازدواجية الاهتمام عند تيّار : من جهـــة التفتيش العلمي ، ومن جهة أخرى الدفاع عن الدين .

من ١٩١٢ الى ١٩١٤ عاش تيّار في باريس وتعرّف إلى الاب Breuil وإلى العالم مرسلان بول (Boule) .

سنة ١٩١٤ ابحر الى «كانتربري» ليتمم ما يُدعى في تدريبه الرهباني بالابتداء الثاني . انما حالت الحرب دون نجاح تلك السنة اذ اضطر تيّار في شهر كانون الاول منها للذهاب الى فيشي (Vichy) ومنها إلى كليرمون فرّان .

في ٢٠ كانون الثاني عيّن لمرافقة المغاربة . في ١٩١٥ ذهب تيّار الى ايبر (Ypres) والشامبان . في ١٩١٦ أرسل الى فردن . في ١٩١٧ إلى Chemin des Dames . في ١٩١٨ كانت موقعة المارن (La seconde Marne) .

كان تيّار في كل مواقفه شجاعاً ، ذا بأس ورباطة جأش يطفح قلبه محبة .

في ١٠ اذار ١٩١٩ دخل تيّار السوربون لإنهاء اجازته في العلوم الطبيعية .
في ٢٢ اذار ١٩٢٠ دافع عن اطروحته .

اكتسب عطف ومحبّة الكثيرين وأدخله العالم الكبير Gaudefroy الى المعهد الكاثوليكي في باريس وظلّ فيه يُلقي الدروس في علم طبقات الارض من ١٩٢٠ حتى ١٩٢٣ .

سنة ١٩٢٣ كلّف بتنقيبات علمية في الصين وبخاصة في منطقة الاردس (Ordos) .

في تشرين الاول ١٩٢٤ عاد الى باريس .

في نيسان ١٩٢٥ بدأ رحلة علمية الى انكلترا .

من ١٩٢٥ الى ١٩٢٦ عمل ساهراً ومتكاتفاً مع ادوار لروا (E. Le Roy) الفيلسوف البرغسوني .

في آخر سنة ١٩٢٦ طلب الرؤساء في الرهبنـــة الى الاب تيار ان ينعزل عن التدريس في المعهد الكاثوليكي في باريس . فذهب تواً الى الصين .

في ١ تشرين الاول ١٩٢٧ ترك الصين وعاد الى باريس . ومكث فيها حتى تشرين الثاني ١٩٢٨ وكان له أصدقاء أعزّاء : ڤاليري ولروا والمونسنيور برونو ده سولاج .

في تلك الغضون كان تيّار يلقي الرياضات الروحية على الطلاّب .

في الايام الاولى من شباط ١٩٢٩ أبحر من دجيبوتي الى تيينتسين ووصلها في اذار وانضمّ الى اصحابه في التنقيب عن « انسان » شوكوتين الذي سيُدعى Sinanthropus .

عاد الى باريس في ١٩٣٠ .

من حزيران ١٩٣١ إلى شباط ١٩٣٢ رافق الـ Croisière jaune ومن ذلك الوقت لم يتوقف عن الرحلات العلمية الكشفيّة : بكين، برمانيا، جاڤا، الصين.

سنة ١٩٥١ ذهب الى الولايات المتحدة بعد ان مرّ بباريس .

في العاشر من نيسان ١٩٥٥، عيد قيامة المسيح منتصراً على الموت، مات تيّار وكان يتوق الى ان يترك هذه الفانية يوم غمر النور البشرية الرازحة تحت عبء الخطيئة. ولقد قال متذكراً كل ما اعتراه من صعوبات وآلام في حياته: «ربّي اني فتّشت عنك بكل ما فيّ من قوى، وبكل ما اعطتني الحياة من ظروف قاسية. لم اتوانَ ابداً عن التفتيش عنك، وعن وضعك في قلب المادة الشاملة. وليكن لي الفرح في ان أغمض العينين يوم النور الشفاف الشامل، يوم يشعل كل شيء بشمول نارك اللاهبة».

القدّاس على العالم

مقدمة الكتاب

ما أوحى للأب تيار دي شاردن بهذا التأمل ، هو انه كان في بعثة علمية في قلب صحراء Ordos ، وقد تعذّر عليه الاحتفال بذبيحة القداس . كان ذلك ، على ما يظن ، يوم عيد التجلي[1] ، عيد عزيز عليه بنوع خاص . عندها فكّر باشعاع الحضور الافخارستي في الكون . طبعاً انه لم يخلط بين هذا الحضور ، ثمرة الاستحالة السرية بحصر المعنى ، مع الحضور الشامل للكلمة . لم يكن ايمانه بسر الافخارستيا حارًّا فقط ، بل كان دقيقاً وثابتاً ايضاً . والحق يقال ، ان هذا الايمان كان قوياً وواقعياً لحدّ انه كشف له عن النتائج ، أو كما كان يقول ، عن « الاتساعات » والامتدادات . وفي زمن خبأت فيه الفردية بسرعة ، في هذه النقطة ، تعليم التقليد الكاثوليكي الكامل ، كان تيار يكتب — في السنة ذاتها التي ألّف فيها « القداس على العالم » — :

« عندما يحلّ المسيح بنوع سري في كلّ من المؤمنين به ، ليس فقط ليتحدّث اليه (...) عندما يقول بواسطة الكاهن : هذا هو جسدي تتعدّى

(١) لم يتمكن الأب تيار دي شاردن من كتابة «القداس على العالم» في فصح ١٩٢٣ كما حدّث عنه ذلك أصدقاء من « بكين » . لأنه لم يصل الى « Ordos » الا في آب من السنة عينها . قد يمكن ان التباساً وقع بين عيدين يتمجد المسيح فيهما . ولقد عبر الأب عن انجذابه الروحي بعيد التجلي عدة مرات .

هذه الكلمات قطعة الخبز التي تلفظ عليها فتخلق الجسد السري بكامله . ومن خلال القربان يمتدّ العمل الكهنوتي على الكون بالذات (...) فتلقى المادة بأكلها ببطء ، ودون هوادة ، التكريس الأعظم » .

وقد سبق الأب تيار فكتب في «الكاهن» سنة ١٩١٧ : «عندما يمدّد المسيح عمل التجسد بحلوله في الخبز ليحوّله ، فعمله لا يحدّ اذاك بالكسرة المادية التي يبدلها حضوره الى حين . انما تحيط بالاستحالة السرّية هالة من تأليه حقّ للكون بأجمعه وان جزئياً . ويعمل الكلمة عبر العنصر الكوني حيث حلّ ، كي يخضع له كلّ ما تبقّى ويحوّله اليه » .

تؤكّد هذه النصوص ان المؤلّف عبّر عن الافخارستيا في جوهره المعيّن وميّزه عن مفاعيله الثانوية التي بها يظهر خصبه : نمو الجسد السرّي ، تكريس الكون ، وتشهد عن ملء ايمان من خلاله يبين لنا تأثير عقيدة بولس الحق والعميق على الاب تيار . فالأب يجتهد قبل كلّ شيء ، ان يعطي قداسه اليومي دوراً كونياً ، وابعاداً كوكبية ... والحق يقال ان هذا يضاف في تفكيره الى معنى الافخارستيا اللاهوتي الأكثر صواباً .

(NICOLAS CORTE, *La Vie et l'âme de Teilhard de Chardin*, Paris, Fayard 1957, p. 61).

وبعد سنة من كتابته «القداس على العالم» كان الأب تيار يوضح « في كوني» ايضاً « كي يفسّر بطريقة لائقة المقام الأساسي الذي يحتله الأفخارستيا في تدبير العالم (...) ، اظن انه من الضرورة بمقدار ان نعطي محلاً كبيراً في التفكير المسيحي والصلاة المسيحية ، لامتدادات الحضرة الافخارستية الحقيقية والطبيعية . (...) .

وكما ندعو بحق «جسدنا» مركزاً محلياً لاشعاعنا الروحي (...) يجب القول ان الجسد الاساسي ، جسد المسيح الأول ، محدّد بأشكال الخبز والخمر (...) ولكن القربانة هي شبيهة بموقدة متوقدة يشع منها لهيبها وينتشر (...) »

N. M. WILDIERS, *Docteur en théologie*.

التقدمة

بما إني ، لمرة أخرى ، يا ربّ ، أجدني ، لا في غابات « الآن L'Aine » بل في صحارى آسية ، لا خبز لي ولا خمر ، ولا مذبح ، سأسمو فوق الرموز إلى عظمة الواقع الخالصة وأقدّم لك ، أنا كاهنك ، على مذبح الكون الشامل عمل العالم وأتعابه .

ها قد أنارت الشمس، هناك، طلائع المشرق الاوّل القصيّة، وتحت بساط نيرانها المتحرّك ، تستفيق الحياة على وجه الارض مرّة أخرى ، وتتململ ، ثم تستأنف نشاطها المضني . سأضع على صينيتي ، يا إلهي ، الحصاد المنتظر من هذا الجهد ، واصبّ في كأسي عصارة الثمار التي ستسحق ، في هذا النهار .

كأسي وصينيّتي هما أعماق نفس فسيحة الانفتاح على كلّ القوى التي ستهب ، بعد هنيهة ، من مختلف أنحاء الكرة الأرضيّة وتتّجه جميعها نحو الروح .

ليأتِ اليّ اذاً ، أولئك الذين أيقظهم النور ليوم جديد ، بذكراهم وحضورهم الروحي .

واحداً واحداً أراهم ، يا ربّ ، وأحبهم اولئك الذين جعلتهم عضداً وجمالاً طبيعيين لوجودي .

واحداً واحداً اعدّهم ايضاً أفراد تلك العائلة الأخرى العزيزة الذين جمعتَهُم حولي ، شيئاً فشيئاً ، من العناصر الأبعد اختلافاً ، قرابةُ القلب والفكر والبحث العلمي . سأذكرهم واحداً واحداً ، استعرضهم في خاطري ، من خلال غشاء من الغموض ، ولكن دون أن استثني واحداً منهم ، اولئك الذين يؤلّفون بفئاتهم المختلفة طبقة الأحياء التي لا عدّ لها : اولئك الذين يحيطون بي ويعضدوني دون أن أعرفهم ، اولئك الذين يفدون إلى هذا العالم والذين يغادرونه ، وبنوع خاصّ ، اولئك الذين ، في صلب الحقيقة أو عبر الضلال ، في مكاتبهم ، في مختبراتهم او في مصانعهم ، يؤمنون بتطوّر الأشياء ويتفانون في السعي وراء النور .

هذا الحشد المائج ، في غموضه ووضوحه ، الذي يهولنا اتّساعه — هذا الأوقيانوس البشريّ الذي ترمي تموّجاته البطيئة والمملّة الشكّ في القلوب الأشد ايماناً ، أريد ، في هذه اللحظة أن يهتزّ كياني ويتماوج وسط جلبته العميقة . كلّ ما سيزيد في العالم خلال هذا النّهار وكلّ ما سينقص ، — وكلّ ما سيموت ايضاً ، — هذا ما أجهد نفسي لأجمعه فيّ ، يا ربّ ، وأرفعه اليك ، تلك هي مادّة ذبيحتي التي قد ترغب فيها .

قديماً ، كانت تقدّم في هيكلك بواكير الزرع وخيرة القطعان . والتّقدمة التي تنتظرها حقاً ، تلك التي تشعر بحاجة سرّية

اليها كلّ يوم لتُشبع جوعك وتروي ظمأك ، ليست الاّ نمو العالم المحمول بالمصير الشامل .

إقبل ، يا ربّ ، هذه القربانة الجامعة التي يقدّمها لك في الفجر الجديد الخلْق المنجذب اليك . أنا أعلم أن هذا الخبز ، جهدَنا ، ليس ، في حدّ كيانه ، سوى انحلال جسيم ؛ وان هذا الدم ، ألمَنا ، ليس هو ايضاً ، مع الأسف ، سوى شراب مذيب ؛ ولكن في أعماق هذا العالم غير المتجانس في الشكل وضعتَ — وهذا ما اتيقّنه لأني أحسّه — شوقاً مقدّساً جارفاً يجعلنا ، الكافر منّا والمؤمن ، نصرخ كلّنا : « ربي اجعلنا واحداً » .

لأنك أعطيتني ، يا إلهي ، عوضاً عن غيرة قدّيسيك الروحيّة وطهارتهم السّامية عطفاً فيّاضاً على كلّ ما يتحرّك في المادّة البهيمة — لأني حتماً أعرف ذاتي أني ابن الأرض اكثر مني ابن السماء — فسأرتقي بالفكر ، هذا الصباح ، إلى الأماكن العلويّة ، مثقلاً بآمال أمّي وأشجانها ؛ وهناك ، بقوّة الكهنوت الذي أؤمن انك وحدك أعطيتني — أدعو النار على كلّ ما يتهيأ في الطبيعة البشرية ليولد أو يفنى تحت الشمس الشارقة .

النار فوق العالم

وهمّ يعاند في التسلّط علينا ، وهو أن النار ، هذا العنصر التكويني ، تخرج من أعماق الأرض وتتّقد شعلتها تدريجياً على

طول خطّ الحياة الساطع . وإنها لنعمة منك ، يا ربّي ، أن أدرك أن هذه الصورة كانت مضلّلة ، وأن عليّ أن أعكسها لكي تمتلئ عيناي إحساساً بوجودك. في البدء كانت القوّة العاقلة، المحبّة، العاملة . في البدء كان الكلمة المطلق القدرة على إخضاع وجبْل كلّ مادة قد تتكوّن . في البدء لم يكن برد ولا ظلمة . كانت النار . هذه هي الحقيقة .

وهكذا بدلاً من أن يتفجّر النور تدريجياً من ظلام ليلنا ، هو النور الموجود منذ البدء الذي يبدّد ظلامنا بصبر وبقدر محتوم . نحن الخلائق لسنا ، في حدّ كياننا ، الاّ الظلام والفراغ ، وانتَ ، يا الهي ، أنت أساس العلم الأبدي وثباته بالذات لا يحدك زمن ولا مكان ، يا مَن فيه يبرز عالمنا ويكمل رويداً رويداً بخسرانه الحدود التي منها يظهر لنا كبيراً . كل شيء كائن . وأينما كان لا يوجد الاّ الكيان ، مع تجزؤ الخلائق وتناقض ذرّاتها .

أيّها الروح المحرق ، ايّتها النار الجوهريّة والشخصيّة، يا غاية حقّة لوحدة تعلو ، مطلقاً ، بجمالها وشهيّتها ، ايّ صهر مفنٍ وليد خيال ايّة حلوليّة، تنازَلْ ، هذه المرّة ايضاً ، على المادّة الجديدة ذات القشرة الضعيفة التي ستلفّ العالم اليوم وأعطها روحاً .

أنا أعلم أنّنا أضعف من أن نُملي أو ان نسبق ادقّ حركاتك . منك كلّ مبادرة ابتداءً من صلاتي .

ايّها الكلمة المشعّ ، ايتها القدرة الحارّة، يا من تجبلين العديد لتنفحيه روحك ، أسألك أن تبسطي علينا يديْك القويّتيْن ،

يديْك الواقيتين ، يديْك الحاضرتيْن في كلّ مكان ، هاتيْن اليديْن اللتيْن لا تمسّان لا هنا ولا هناك (كيدٍ بشرية) ولكنّهما تختلطان بعمق الأشياء وشمولها الحاضر والماضي ، وتنالنا معاً بكلّ ما هناك من اتساع وعمق ، فينا وحولنا .

هيئْ بهاتين اليديْن غير المغلوبتين ، بوفاقٍ سام ، الجهد الأرضي الذي أقدّمه لك الآن بكليّته مجموعاً في قلبي ، وذلك للعمل الكبير الذي تأمل . حرّك هذا الجهد ، قوّمه ، جدّده حتى أساساته ، أنت الذي تعلم لماذا لا يمكن أن تولد خليقة إلاّ ومحمولة على جذع التطوّر اللامحدود .

والآن ، قل عليْه بواسطة فمي كلمتيْك الفعّالتين اللتين بدونهما كلّ شيء يتداعى ، كلّ شيء ينحلّ ، في حكمتنا واختبارنا ، واللتين بهما كلّ شيء يتوحّد وكلّ شيء يتقوّى باستمرار في نظريّاتنا وتطبيقاتنا في الكون . — على كل حياة ستبرعم ، وتنمو ، وتزهر ، وتنضج ردّد «هذا هو جسدي» . — وعلى كل موت يتهيّأ ليُضعف ، ويذبل ، ويقطع ، قل (يا لسرّ الايمان الرفيع) ، «هذا هو دمي»[١].

---

(١) تنبه المقدمة في أول الكتاب على أن المؤلف لم يخلط بين استحالة الخبز الى جسد المسيح ، وبين حضرة الكلمة الشاملة في الكون . ولقد قال في «الكاهن» : «إن الإستحالة لتشع بتأليه للكون حقيقي ، وان كان ضعيفاً» . — فن العنصر الكوني حيث ، بتجسده ، دخل ويقيم بصورة سرية «يعمل الكلمة على اخضاع ما تبقى والاستيلاء عليه» «الناشر» .

النار في العالم

لقد تمّ كلّ شيء.

دخلت النار الأرض مرّة أخرى.

لم تنزل بضجّة على القمم، كالصاعقة في لمعانها. هل يحطّم السيّد الأبواب ليدخل بيته؟

أضاءت الشعلة كلّ شيء من الداخل دون قصف ولا رعد. من لبّ أصغر ذرّة حتّى فاعليّة الشرائع الأكثر شمولاً، لقد غزت بنوع طبيعي، زرافات ووحدانا، كلّ عنصر، كلّ قوّة، كلّ اتصال في عالمنا بنوع كان يظنّ فيه انه اشتعل تلقائياً.

في الانسانية الجديدة التي تولد اليوم، مدّد الكلمة عمل ميلاده اللامتناهي. وبقوّة تعمّقه في لجّة العلم، أحيا دون رعشة مياه المادّة الدفّاقة. ظاهراً لم يرتعش شيء بالتغيّر الفائق الوصف. انّما سرّياً وحقيقة صار الكون، وهو قربانة لا محدودة، جسداً بملامسة الكلمة الجوهريّة. منذئذٍ كلّ مادّة تتجسّد بتجسّدك، يا ربّ.

منذ زمن بعيد عرفت افكارُنا واختباراتُنا الإنسانية الصفات الغريبة التي تجعل الكون شبيهاً بجسد.

كالجسد يجذبنا الكون بالجمال الذي يطفو في سرّ تجعّداته وعمق عيونه.

وكالجسد ينحلّ ويفوتنا ، نتيجة تحليلاتنا ، وضعفنا ، ونتيجة دوامه الذاتيّ .

وكالجسد لا يُضمّ حقيقةً الاّ بالجهد اللامتناهي لضبطه دائماً وراء ما هو في متناولنا .

هكذا عندما نولد ، نحسّ كلّنا ، يا ربّ ، هذا المزيج القلق من القرب والمسافة . وليس في إرث الحزن والأمل الذي تتناقله الأجيال ، من حنين اكثر حزناً من الحنين الذي يحمل الإنسان على البكاء سخطاً وشوقاً ، في احشاء الحضرة التي تطفو مجهولة وغير ملموسة حواليه وفي كلّ شيء : « لعلّهم يلمسونه »[1].

الآن ، يا ربّ ، بتكريس العالم ، يأخذ فيك اللمعان والطيب المنتشران في الكون جسماً ووجهاً بالنسبة اليّ . وما استشفّه فكري المتردّد ، وما الحّ قلبي في طلبه بشوق لا يُصدّق ، تهبني ايّاه بسخاء : وهو ليس تعاضد الخلائق بعضها مع البعض الآخر فحسب ، بمعنى أن وجود الواحدة لا يكون الاّ بوجود الأخرى لتحيط بها — بل ذلك الارتباط الوثيق بمركز واحد حقيقي يجعل الحياة الحقّة ، وهي قسمة الخلائق كلّها ، تُعطيها نهائياً قوام وجودها ووحدتها .

فجّر ، يا ربّي ، بجرأة وحيك خجل فكر صبياني لا يتجاسر أن يفكّر بشيء اكثر امتداداً وحيويّة في العالم من كمال تركيب

---

(1) نص من اعمال الرسل ١٧ /٢٧ نعطيه بكامله : « ليطلبوا الرب لعلهم يلمسونه مع انه غير بعيد من كل واحد منا » .

جسدنا الإنساني المزيل. فإن ابناء العصر يسبقون، كل يوم، على طريق التفهّم الاكثر حرارة للكون، معلّمي اسرائيل. انت، ايها الرب يسوع، «يا مَن فيك يجد كلّ شيء قوامه» أظهر ذاتك اخيرًا للّذين يحبّونك كروح الخلق السامية ومصدره الطبيعي، ألا ترى ان حياتنا في خطر؟ لو لم يكن باستطاعتي أنا أن أؤمن ان حضورك الحقيقي يُحيي، ويطوّع، ويدفئ أدقّ القوى التي تتداخلني أو تمسّني، أما كنت أرجف حتّى الصميم من كياني وأموت بردًا؟

شكرًا، يا الهي، لأنك، بألف طريقة قُدْتَ نظري حتى كشفت له عن بساطة الأشياء الشاسعة. فرويدًا رويدًا تحت وطأة نموّ الرغبات الجارف التي وضعتَها فيَّ عندما كنتُ لا أزالُ طفلاً، تحت تأثير الأصدقاء الفريدين الّذين وُجدوا، في الوقت المعيّن، على طريقي، يُنيرون عقلي ويقوّونه، في الوعي الّذي أحرزَتْه لي التوجيهات القاسية والعذبة التي جعلتَني أقطع حدودَها تباعاً، لم أستطع بعدها أن أرى شيئاً أو أصبو إلى شيء خارجاً عن الدّائرة حيث كلّ شيء واحدٌ.

في هذه البرهة التي بها عبرت حياتك، بقوة متزايدة، إلى سرّ العالم، سأتذوّق، بوعيٍ نامٍ، قوّة وهدوء نشوة رؤيا لا اتمكّن أن أسبر غور تناسقها وانسجامها.

ما أتحسّسه تجاه وداخل العالم الذي استوليت عليه بجسدك والذي صار جسدك، يا الهي، ليس فناء الوحداني النهم إلى

أن يذوب في وحدة الأشياء – ولا اضطراب الوثني المنحني على أقدام إله ملموس – ولا استسلام المتجرّد السلبي المتأرجح على هوى القوى الصوفيّة .

من قوّة هذه التيّارات المختلفة آخذ شيئاً دون أن أقذف بنفسي في أيّة تهلكة . فالموقف الذي ثبّتني فيه حضورك الشامل هو تركيب عجيب تختلط فيه ، وهي تصلح بعضُها بعضاً ، ثلاثة أهواء رهيبة من اشدّ ما يمكن للقلب البشري أن يهيج ابداً .

كالوحداني أغوص في الوحدة الجامعة ، ولكن الوحدة التي تقبلني لها من الكمال ما يجعلني أعرف أن أجد فيها ، وأنا أفقد ذاتي ، كمال شخصيتي السّامي .

كالوثني أعبد إلهاً ملموساً . إني ألمسُ هذا الإله بكل مساحة عالم المادّة وعمقه الذي منه أُخذت . ولكن كي أقبض عليه كما أريد (كي أتابع لمسه فقط) يجب أن أذهب دوماً وبعيداً ، من خلال كلّ قبضة وأبعد – دون أن أتمكّن من الركون إلى شيء ، – محمولاً في كلّ برهة بالخلائق وفي كلّ برهة أتعدّاها – في ملاقاة دائمة وتجرّد متّصل .

كالمتجرّد أترك الألوهة تهدهدني بعذوبة على هواها . ولكن في الوقت عينه أعلم أن الإرادة الإلهية سوف لا تظهر لي بجلاء ، في كلّ برهة ، الاّ في نهاية جهدي . وسوف لا ألمس الله في المادّة كيعقوب الاّ اذا غلبني .

ولذا فيما انّه ظهر لي الموضوع النّهائي الكامل الذي تنسجم وايّاه طبيعتي ، أخذت قوى كياني تهتز بصورة عفويّة على وقع

علامة موسيقية وحيدة تتفرّد بغناها ، فيها أميّز الاتجاهات الاكثر تضارباً تتّحد دون جهد : من الحماسة في العمل إلى الفرح في الاحتمال ، من لذّة القبض إلى حرارة التجاوز ، من كبرياء الكبر الى سعادة التلاشي في آخر أكبر .

غنيّ بمائية العالم ، أصعد نحو الروح الذي يبسم لي وراء كلّ نصر وأنا ملتحف بجلال للكون حقيقي . وهائم في سرّ التجسّد الإلهي لا أعرف أن أقول ايّ من الغبطتين هي أشدّ ضياء : أهي وجود الكلمة للسيطرة على المادّة ، أم اقتناء المادّة لبلوغ نور الله وقبوله .

فليكن نزولك ، يا ربّ ، بالنسبة اليّ ، تحت العوارض الشاملة ، لا ثمرة تأمل فلسفي محبّب ، مدلّل فقط ، بل فليصر لي بالحقيقة حضوراً واقعياً . بالقوّة أو بالفعل ، شئنا أم أبينا ، تجسّدت في العالم وحياتنا متعلّقة بك . ولكن ، عملياً ، كم من المسافات بعد لكي تصير قريباً من كلّ منّا بالتساوي ؟ نحن كلّنا محمولون معاً في عالم واحد ، الاّ أن كلّ واحد منّا يكوّن عالماً صغيراً حيث يتمّ التجسّد مستقلاً بقوّة وتماوجات خاصّة . ولهذا ففي صلاتنا على المذبح نسأل أن يحصل التقديس لنا « ليصبح لنا الجسد والدم ... » وإذا كنت أؤمن ثابتاً أن كل ما يحيط بي هو جسد ودم الكلمة[1] ، عندئذ يحصل لي (واستطيع

---

(١) بواسطة تماس من له السلطان ان يخضع له كل شيء تماساً طبيعياً . *Le Milieu divin*, p. 152. «الناشر» .

القول لي وحدي) الشغف العجيب الذي يظهر حقيقة في قعر كل عمل وكل عنصر ، حرارة مضيئة لحياة واحدة . ويا للتعاسة، إذا ما فتر إيماني ، يخبو النور حالاً، ويظلم كلّ شيء، وينحلّ كلّ شيء .

في هذا النهار الذي يبدأ نزلت ، يا ربّ . آه ، أيّ تنوّع لامتناه في درجات حضورك للحوادث ذاتها التي تتهيأ والتي ستتحمّلها كلّنا . ففي الظروف عينها التي تحاول ان تلفّني وأن تلفّ إخوتي يمكنك ان تحضر قليلاً، كثيراً، اكثر فاكثر أو أبداً .

ولكي لا يؤذيني اليوم سمٌّ، ولا يقتلني موت، ولا يسكرني خمر، لكي اكتشفك وأحسّك في كلّ خليقة ، اجعلني أؤمن يا ربّ .

المناولة

إذا ما انحدرت النّار إلى قلب العالم فلكي تأخذني في آخر المطاف وتبتلعني . ولذا فلا يكفي أن أتأمّلها وبإيمان مغذّى أُأجج حرارتها حولي دون انقطاع . يجب ، بعد أن عاونت بكلّ قواي على التقديس الذي حملها على الإندلاع ، أن أرضخ أخيراً للاتحاد الذي سيُعطيها ، بشخصي ، الغذاء الذي تطلبه .

أنحني ، يا ربّي ، أمام حضورك في الكون المضطرم . وإني لأتوق اليك وأنتظرك تحت ملامح كلّ ما سألتقي ، كلّ ما سيحدث لي ، كلّ ما سأحقّق في هذا النهار .

إنّه لأمر مخوف أن نولد ، أعني أن نجد ذواتنا محمولين حتماً ، دون إرادة منّا ، في هذا السيل الجارف من القوّة التي تبدو وكأنّها تريد هدم كلّ ما تجرف معها .

أريد ، يا ربّ ، بانعكاس للقوى التي تتمكّن وحدك من خلقها ، أن يتحوّل الرعب الذي يتملّكني ، امام التغييرات الغامضة التي تهيّأ لتجدّد كياني ، الى فرح طافح من الاستحالة فيك .

بدون تردّد أمدّ يدي أوّلاً الى الخبز المحرِق الذي تُقدم لي . ففي هذا الخبز حيث خبّأت بذرة كلّ تطوّر ، اتعرّف إلى مصدر المستقبل الذي تدّخر لي والى سرّه . أن آخذه ، هذا يعني اني ادفع بنفسي إلى القوى التي ستنزعني بألم من ذاتي لترميني في الخطر ، في العمل ، في تجديد افكاري الدائم ، في تخلٍّ شاق عن كلّ حبّ . أن آكله ، هذا يعني أني آلف ، للّذي هو في الكلّ وفوق الكلّ ، ذوقاً وتجانساً يجعلاني ، من الآن وصاعدًا ، لا اتذوّق البتّة الأفراح التي كانت تدفئ حياتي . إني أرضى ، ايها الربّ يسوع ، أن تمتلكني وان تقودني بقوّة جسدك التي تعلو كلّ وصف ، الجسد الذي أغدو اليه مشدودًا نحو مفاوز ما كنت لأجسر أن أدخل وحدي اليها . كنت أحب ، فطرياً ، مثل كل انسان ، أن أنصب خيمتي على قمّة منتقاة . ومثل كلّ إخوتي أخاف ايضاً المستقبل في أسراره المتعدّدة ، وجديده المتزايد الذي يطاردني البقاء نحوه . وبقلق اتساءل معهم إلى أين تذهب الحياة ... فليحررني تناول الخبز مع المسيح المجلبب بالقوى

التي توسّع أرجاء العالم ، من خجلي وغفلتي . ارتمي ، يا إلهي ، بناءً على كلمتك ، في عاطفة المنازعات والقوى حيث تنمو مقدرتي لأكتنه واتحسّس حضورك المقدّس . من يحبّ بشغف يسوع المختبئ في القوى التي تعمل على تكبير الأرض ، فالأرض ترفعه ، بحنان الأمّ ، على ذراعيها الجبّارتين وتجعله يتأمّل وجه الله .

لو كانت مملكتك ، يا ربّي ، من هذا العالم لكان يكفيني كي أنالك أن أركن للقوى التي تعذبنا وتميتنا ، وهي تكبّرنا بنوع ملموس ، نحن أو ما هو أعزّ علينا من ذواتنا . ولكن بما أن الغاية التي تتحرّك الأرض نحوها هي ما وراء لا كل خليقة فردية فحسب ، بل وراء مجمل الخلائق ، ولأن عمل العالم يتوقّف لا أن يلد في ذاته واقعاً سامياً ، ولكن أن ينصهر بالوحدة في «كائن» سابق وجوده ، يحدث انّه للوصول إلى مركز «الكون» السّاطع ، لا يكفي أن يعيش الإنسان أكثر فأكثر لذاته ، ولا أن يُضحي بذاته في سبيل باعث أرضي ، مهما كبُر ؛ فليس باستطاعة العالم أن يصل اليك أخيراً ، يا ربّ ، الاّ بنوع من الانقلاب والرّجوع والتحوير حيث يغيب لزمن ، لا نجاح الأفراد فحسب ، ولكن ظاهر كل فائدة انسانية بالذات . كي ينضمّ كياني حقاً إلى كيانك يجب ان يموت فيّ لا الجوهر فقط بل العالم ، أعني أن أمرّ بالمرحلة المؤلمة من نقص لا يعوّضه ايّ شيء ملموس . لهذا ، وقد جمعتَ في الكأس مرارة كلّ الإنفصالات ، كلّ الحرمانات ، كلّ السفسطات العقيمة تقدّمه اليّ قائلاً : «اشربوا منه كلّكم» .

كيف أرفض الآن هذه الكأس ، يا ربّ ، بعدما ولَجَتْ حتى جوهر كياني ، بالخبز الذي أذقتني ، شهوةٌ لا تُطفأ ، شهوة الوصول اليك ، أبعد من الحياة ، عبر الموت . لو لم تروحن بمزيد عاطفة ، لأولئك الذين يؤمنون ، القوى التي تُميت بعد التي تُحيي لبقي تقديس العالم ناقصاً إذاك . امّا مناولتي فتغدو ناقصة (ولكن تكون مسيحيّة) اذا ، مع الزيادات التي يحملها اليّ هذا النهار الجديد ، لم اتقبّل ، باسمي وباسم العالم ، كمشاركتك الأشد مباشرة ، تأثير الضعف ، والشيخوخة ، والموت الذي يعمل دون هوادة في فناء الكون ، سرًا او علانيةً ، لخلاصه أو لهلاكه . استسلم بكلّيتي ، يا الهي ، لأعمال الانحلال المخيفة التي بها سيأخذ حضورك الإلهي مكان شخصيتي الضيّقة . هذا ما أريد ان أؤمن به ايماناً أعمى . إن الذي يكون قد أحبّ حتّى الوله يسوع المخبّأ في القوى التي تميت الأرض ، تضمّه الأرض ، وهي تنحلّ ، بين ذراعيْها الجبّارتين ومعها يستيقظ في حضن الله .

صلاة

يا يسوع ، وانت محتجب الآن في قوى العالم ، اصبحت ، حقيقة وبنوع طبيعي ، الكلّ بالنسبة اليّ وحولي وفيّ . ساحمل بغيةً واحدةً نشوةَ ما امسك ، وعطش ما ينقصني ، وسأردد

لك ، بعد خادمك ، الكلمات الملتهبة حيث تتحقق دوماً وبصوابيّة أقوى مسيحية الغد ، وايماني بهذا لا يتزعزع .

« خبئني ، يا ربّ في الصميم من قلبك ، وعندما تملكني ، احرقني ، طهّرني ، أشعلني ، بدّلني حتى ارتياح ارادتك الكامل وحتى سحقي الذاتي الشامل » .

« يا ربّ » . نعم لقد وجدت اخيراً من يمكني أن أعطيه الاسم ، من كلّ قلبي ، بواسطة سرّي التقديس والمناولـة الشاملين . يا يسوع ، طالما لم أعلم ، ولم أجرؤ أن أرى فيك الاّ انسان الألفي سنة ، والمعلم الأكبر ، والصديق ، والأخ ، بقي حبّي خجولاً ومتضايقاً . أليس لنا وحولنا أصدقاء وإخوة وحكماء أكبر ، وأعذب ، وأقرب ؟ وبعده أيستطيع الإنسان أن يُعطي ذاته بكاملها الى طبيعة إنسانية ولا غير ؟ كل حين أمتلك العالم قلبي فوق كل عنصر عالمي وأبداً ما كنت بكلّ صراحة لأنحني أمام شخص آخر . عندئذ، ولمدة طويلة، تهت مع ايماني غير عالم ما أحبّ . ولكن اليوم، بعد تجلي الطاقات التي تتجاوز الحدود البشرية والتي منحتك اياها القيامة ، فانك تظهر لي يا معلّم ، عبرَ كلّ قوى الأرض ، عندها اعترف بك سيداً لي واسلّمك ذاتي بكلّ عذوبة .

غريبة تصرّفات روحك ، يا الهي ، منذ قرنين عندما ابتدأت تظهر جاذبية قلبك المميّزة في كنيستك ، تبيّن لي أن ما يغوي النفوس ويغريها هو اكتشاف عنصر اكثر تحديدٍ وإحاطة من

انسانيتك بالذات . هاك الآن هذا التبديل المفاجئ . لقد أصبح واضحاً انك «باظهار» قلبك ، أردت بنوع خاصّ ، يا يسوع ، ان تقدّم لحبّنا الوسيلة للهرب من كلّ ما هو جدّ ضيّق وصغير ، ومحدود في الصورة التي لك فينا . في وسط صدرك لا أرى الآ اتوناً ، واذا امعنت النظر في هذا اللهيب ، خيّل اليّ ان كلّ ما حوالى جسدك يذوب ، وما يحيط به يكبر بعيداً عن كل قياس بنوع أن لا أميّز فيك الآ سمات وجه «عالم» مضطرم .

يا مسيحاً ممجّداً ، يا سطوة منتشرة سرّاً في قلب «المادّة» ويا محوراً مبهراً تُشدّ اليه رباطات «الكثرة» المتعدّدة ، يا قوة كالعالم ثائرة ، وكالحياة دافئة ؛ أنت يا من جبينك من ثلج ، وعيناك من نار ، ورجلاك تلمعان كالنضار ، أنت يا من تضبط يداك النجوم ، انت الأوّل والآخر ، الحيّ ، الميت والمنتصر على الموت ، انت يا من تجمع في وحدتك الفائقة كلّ الجمالات ، وكلّ الأذواق ، وكلّ القوّات ، وكلّ الأحوال ، انت الذي كان يفتش عنك كياني في شوق فسيح كالكون : أنت في الحقيقة ربّي وإلهي .

«خبّئني فيك ، يا ربّ . آه إني اؤمن (ولقد غدا ايماني هذه المرّة إحدى دعائم حياتي الخفيّة) أن الظلمات خارجاً عنك هي عدم صرف .

لا كيان لشيء خارجاً عن جسدك ، يا يسوع ، بنوع أن الذين يوجدون مطروحين بعيداً عن حبّك ، هم ايضاً يستفيدون ،

ولكن لتعاستهم، من عضد حضورك . كلّنا ، شئنا أم أبينا ، موجودون فيك، يا محور الثبات والحياة الشامل ! ولكن لأننا لسنا في الحقيقة أشياء مصنوعة يمكن إدراكها قريبة أو بعيدة عنك على حدّ سواء، ولأن عامل الاتحاد ينمو فينا مع ذات الوحدة التي تُوحّدنا بك شيئاً فشيئاً ، فباسم ما في كياني من جوهريّ ، اسمع ، يا ربّ ، شوق هذا الشيء الذي أتجاسر وأدعوه نفسي ؛ مع اني كلّ يوم ازداد معرفة أنها اكبر مني . — ولكي أروي عطشي إلى الوجود ، عبر مناطق جوهرك العميق المتتالية، اجذبني حتّى طيّات محور قلبك الخفيّة .

يا معلّمي ، على قدر ما نلقاك في الأعماق ، على قدر ذلك نلقى سيطرتك شاملة . بهذه العلامة يمكنني أن أقيّم ، في كلّ سانحة ، كم أنا متقدّم فيك . بينما تحتفظ كلّ الأشياء حولي بطعمها وإطارها، فأراها مع هذا منبثة بروح سرّية في عنصر وحيد قريب للغاية وبعيد للغاية ، بينما أنا سجين مؤانسة معبد إلهي لا ترضى عنه ببديل، سأشعر مع هذا اني أتيه حراً في سماء الخلائق كلّها . عندئذٍ أعلم أني أقترب من المحور حيث يتّجه قلب العالم في إشعاعٍ ينبثق من قلب الله .

في نقطة التأجّج العام هذه ، أثّر عليّ ، يا ربّ ، بالنار الموحّدة للأعمال الداخلية والخارجية التي ، اذا احتُملت بعيداً عنك ، كانت ، بدون وجه ، مغالطة ، عدائية؛ وإن أُحْيِيَتْ بقوّة «تستطيع أن تستولي على كلّ شيء» تُصبح ، في اعماق قلبك الطبيعية ، ملائكة عملك الظافر . عظّم قلبي مناوبةً واحمله

على القرف بمزج عجيب ، مع جاذبيّتك ، لجمال العالم ونقصانه ، لوداعته وشراسته ، لضعفه المخيّب وقوته المخيفة ؛ علّمه الطهارة الحقيقية التي ليست انفصالاً مضعفاً من الأشياء، ولكن انطلاقاً عبر الجمالات كلّها ؛ اكشف له عن المحبّة الحقيقية التي ليست الخوف العقيم من عمل الشرّ ، بل الإرادة القويّة لندخل كلّنا أبواب الحياة ؛ أخيراً أعطه ، أعطه خاصّة ، بروئيا متزايدة لوجودك الكلّي، الرغبة السعيدة في اكتشاف وبناء واحتمال العالم دوماً وبازدياد، ولكي يعظم دوماً ولوجه فيك .

يا إلهي ، فرحي كلّه ونجاحي ، كلّ سبب وجودي وذوقي لأعيش، انّما هو منوط بالرؤيا الأساسيّة لاتّحادك بالكون . ليُعلن الآخرون حسب رتبتهم السّامية عظائم روحك الطّاهر . بالنسبة اليّ ، أنا الّذي تملكني دعوة تتأصّل في جذور طبيعتي العميقة ، لا أريد ولا يمكنني أن أصرّح بشيء آخر سوى بالامتدادات العديدة لكيانك المتجسّد عبر المادّة . أنا لن أعرف أبشّر إلاّ بسرّ جسدك، يا نفساً تشفّ من خلال كلّ ما يحيط بنا !

إلى جسدك ، يا يسوع ، في كلّ امتداده ، أعني العالم الصائر ، بقوتك وايماني، البوتقة الجميلة والحيّة حيث يختفي الكلّ ليولد ، — بكلّ الثروات التي فجرتها فيّ جاذبيّتك الخلاقة ، بعلمي الهزيل ، برباطاتي الدينية ، بكهنوتي ، (وبما أعتدّ به فوق كلّ شيء اي) بعمق يقيني الإنساني أنذر ذاتي لأعيش منه وفيه أموت .

أردس ١٩٢٣

المسيح في المادّة

ثلاث قصص على طريقة بنسون[1]

(١) كان الأب تيار دي شاردن يكتب حيناً « قصصاً » وأحياناً « أقاصيص » على طريقة بنسن
R. H. BENSON —
هو كاتب انكليزي كان قد نشر اقصوصة صوفية كان لها وقعها القوي على الأب تيار .
(الناشر cf. *Le Milieu divine*, p. 167,)

قضى صديقي[1]، ذاك الذي كان يشرب من كلّ حياة كما يشرب من كل نبع مقدّس. كان قلبه يحرقه في الداخل. ذاب جسده في الأرض أمام «ڤردون». - اني أتمكّن الآن من ترديد بعض من كلماته بها كان، ذات مساء، يكشف لي عن الرؤيا القوية التي كانت تضيء حياته وتطمئنها.

«كان يقول لي: أتريد أن تعلم كيف، في نظري، أخذ الكون القدير المتعدّد وجه المسيح؟ لقد حدث ذلك رويداً رويداً. وأحداس مجدّدة كهذه يصعب تحليلها بالكلام. انّما يمكنني أن أخبرك بعض الاختبارات التي أماطت اللثام عنها وأنارت قلبي، كأن ستاراً ينحسر دفعات.

(١) هذه الأقصوصات هي حميمة لدرجة ان المؤلف شعر بحاجة كي يتخفى. «فالصديق» هو المؤلف بالذات.

اللوحة

« ... ابتدأ يقول : في ذلك الوقت كنت منهمكاً بمسألة فلسفية — فنّية . لنفترض أن المسيح تنازل فظهر أمامي بالجسد ، فما يكون منظره ، يا ترى ؟ ما حليه ؟ ما الطريقة التي بها سيدخل بنوع حسّي إلى المادّة ؟ وما الكيفيّة التي بها سيظهر على الأشياء التي تحيط به ؟ ان ما أحزنني وشكّكني وبلبلني هو فكرة إمكانية وجود جسد المسيح جنباً إلى جنب معَ الأشياء الوضيعة في مجال العالم دون أن تتحسّس هذه أو تفقه ، بتغيّر مرئي، العظمة التي بقربها .

انما توقّف نظري تلقائياً على لوحة تمثّل المسيح يقدّم قلبه للعالم. كانت اللوحة معلّقة أمامي على جدار الكنيسة التي دخلتها مصلّياً . وتتبعت مجرى أفكاري فما كنت لأعلم كيف يمكن الفنّان أن يمثّل ناسوت المسيح المقدّس، دون أن يترك له ثبات جسده المحدّد الذي يظهر أنه يميّزه عن بقية الناس، دون أن يُعطيه وجهاً شخصياً معبراً ، الذي ، وإن فرضنا أنه كان جميلاً ، كان جماله فريداً يباعد سائر جمالات الأرض .

اذاً كنت أتساءل بفضولية عن هذه الأشياء، وكنت انظر الى اللوحة عندما ابتدأت الرؤيا (بالحقيقة لا اتمكّن أن احدّد في أي وقت ابتدأتْ ، لانها كانت من القوة بقدر لمّا فقهتها) .

ولكن عندما تركت نظري يتيه على أطراف الصورة رأيتها تذوب في الحال ... تذوب بطريقة غريبة يصعب شرحها .

وعندما كنت أحاول أن أرى رسم شخص المسيح، كان يظهر لي محدداً بجلاء. وبعدها، اذا ما عدت احدق به بقوة كانت حباكة المسيح، وثنايا ثوبه، وإشعاع شعره، وزهرة جسده تتساوى نوعاً ما (دونما انحلال).

ولكان يقال إن المساحة الفاصلة بين المسيح والعالم الموجود فيه تتحوّل إلى طبقة مترجرجة حيث تختلط الحدود كلّها.

يبدو لي أن التغيّر عمل أولا في نقطة من استدارة الصورة، وابتدأ من هناك حتّى أتى على طول الإستدارة. اقلّه في هذا الترتيب فقهت ذلك ومن هذه الهنيهة امتدّ التقلّب سريعاً وبدّل الأشياء كلّها.

لقد لمحت في بادئ الأمر أن الهالة المتحرّكة حول المسيح غير محدودة بكثافة صغيرة ولكنّها كانت تشعّ إلى اللانهايــة وكانت تمرّ فيها، من وقت الى وقت، سحابات وميض فوسفوري تنمّ عن دفق مستديم حتّى الكرات السحيقة من المادّة — راسماً نوعاً من المجرى الدموي أو الشّبكة العصبية الممتدّة عبر كلّ حياة.

كان الكون كلّه يهتزّ! ولكن عندما كنت أحاول ان أنظر الأشياء واحداً واحداً كنت أجدها دوماً وبجلاء مصوّرة مصانةً في فرديّتها.

كلّ هذه الحركة كانت تظهر وكأنّها تفيض من المسيح وخصوصاً من قلبه. بينما كنت أحاول أن أصعد الى نبع الفيض

كي أدرك تساوقه عاد بي انتباهي إلى الصورة نفسها فأبصرت أن الرؤيا تبلغ بسرعة حدّتها.

... ألحظ اني قد نسيت أن أحدثك عن ثياب المسيح. كانت متوهّجة كما نقرأ في خبر التجلّي. ولكن الذي لفت انتباهي بنوع خاصّ، انّها ما كانت منسوجة اصطناعياً ــ الاّ اذا كانت يد الملائكة يدَ الطبيعة ــ ما كانت اللّحمة من خيطان غليظة الغزل، انّما هي المادّة، زهرة المادّة، قد نسجت ذاتها تلقائياً، حتّى الصميم من جوهرها كنسيج من كتّان عجيب.

وكنت أخالني أرى الحلقات تمتدّ بلا نهاية وكأنها تألفت بتنظيمها في رسم طبيعي أعطاها من كنهه حتّى أصلها.

لكني لم أنظر سوى نظرة تائهة لهذا الثوب المنسوج بنوع عجيب، بمؤازرة متّصلة بين كلّ القوى وبين نظام المادّة. هو وجه المعلّم المتجلّي الذي يجذب كلّ انتباهي ويأخذه.

لقد رأيتَ غالباً في الليل تغيرات أضواء النجوم، تارة لآلىء من الدم، وطوراً شرارات بنفسجية من المخمل. لقد رأيتَ ايضاً ركض الألوان على فقّاعة شفّافة ...

وهكذا كانت انوار جمالاتنا كلّها، في تألّق لا يوصف، على وجه المسيح اللامتحرك. لا أحسن القول إذاً كان هذا تمشّياً مع رغباتي أو مع رغبة الذي كان يعرف هذه الرغبات وينسقها. الأكيد في ذلك أن هذه التنوّعات اللامعدودة من

العظمة ، والعذوبة ، والجاذبية الجازمة كانت تتتابع ، وتتحوّل ، وتذوب بعضها في البعض الآخر في انسجام أرتوي منه تماماً .

ومن وراء هذه المساحة المتحركة كان جمال المسيح الفريد يلوح دوماً سانداً اياها ، ضاماً لها في وحدة سامية . وكنت أخمّن هذا الجمال اكثر مما كنت اراه : لأني كلّما حاولت خرق ستار المجالات السفلى التي كانت تحجبه عن نظري كانت جمالات خاصّة ومتجزئة تطلع عليّ وتستر الجمال الحقيقي مع انها تحملني أن انتظره وأتشوّق اليه .

حسب هذه الشريعة كان الوجه كلّه يضيء هكذا . انما محور الاشعاع والتألق كان مخبّأ في عيني الصورة المتجلاة .

وفي عمق عينيه الزاهيتين كان ينعكس كألوان السوسن كلّ ما هو بهج وما هو حيّ (إن لم تكن في ذلك العمق الفكرة الخلابة ، والصورة المبدعة) ...

وكانت بساطة نارهما المتّقدة تذوب تحت تأثير جهدي كي أسيطر عليها في تعقّد لا يوصف ، فيه تجمّعت كلّ الأنظار حيث دوماً دفء قلب بشري ومرآته . هاتان العينان اللتان كانتا في بدء الأمر بعذوبتهما وصفوهما تذكراني بوالدتي ، وكأنها أمامي ، تتحوّلان بعد برهة الى شغف وتسلّط كعيني امرأة — وبطهارة كليّة في الوقت عينه كنت اشعر بكليتي ان لا قدرة لي على التملّص من سيطرتهما .

وبعدئذ كانت تملأها بدورها عظمة كبيرة وجبّارة شبيهة

بتلك التي تقرأ في عيني رجل شديد البأس ، مرهف الشعور أو قوياً جداً، انـما لا شبه في العظمة بينهما ولا في لذة الرضوخ لهما .

لشدّ ما كان لمعان الجلالات كاملاً وغامراً وسريعاً. مسّ كل قواي وولجها على السواء، وهزّ الصميم من كياني في رعشة من الانشراح والسعادة الفريدة .

بينما كنت أمعن نظري بحرارة في حدقتي المسيح الصائرتين الى لجة من الحياة الملتهبة والجذّابة، إذا بي أرى شبه غيمة تصعد من قعر هاتين العينين نفسهما وتمحو هذا التنوّع الذي وصفته وتغرقه . وكان يمتدّ قليلاً قليلاً على تنوّعات النظر الالهي المختلفة تعبير غريب وقويّ يكتنفها اولاً ويبتلعها بعد ذاك ...

وابقى خجلاً .

لأني كنت عاجزاً أن أفقه معنى هذا التعبير الأخير الذي ساد كلّ شيء واختصره . ما كان بامكاني أن أقول هل هو تعبير عن نزاع لا يوصف أو فيض من الفرح الظافر . الذي أعلمه فذاك كان يظهر لي أني رأيته من جديد في نظر جندي متنازع .

اغرورقت عيناي بالدموع حالاً، ولكن عندما أمكنني أن أنظر من جديد كانت اللوحة في الكنيسة تأخذ شكلها المحدّد وخطوطها الجامدة .

انتهيت من هذه القصة ، وبقي صديقي وقتاً صامتاً متأملاً ضاماً يديْه على ركبتيه الملتفّتين في جلسة يألفها . كان النّهار قد هبط . ضغطت على زرّ فبزغ النور جميلاً في القنديل الّذي كان يُنير مكتبي . قائمة القنديل وغطاؤه مصنوعان من الزجاج الشفّاف المائل إلى السُمرة . ركّزت فيه بفطانة لمبات حتى إن البلّور بجملته والموضوعات التي تزيّنه كانت مضيئة داخلياً .

اهتزّ صديقي . ولحظت أن نظره ظلّ مسمّرًا على القنديل كما لو أنه يستقرأه ذكرياته . بينما كان يعيد ، كما سيأتي ، سلسلة أسراره .

« مرة أخرى ـ كان ذلك ايضاً في كنيسة ـ كنت قد سجدت أمام القربان المقدّس المعروض في شعاع على المذبح ـ عندما خبرت انفعالا شديد الغرابة .

لاحظتَ ولا شكّ ـ أليس كذلك ـ أوهام النظر تمدّ ظاهرًا وتكبّر بقعةً جليّة على قعر أسود .

وأنا أنظر القربانة وكان شكلها الأبيض ، مع المذبح المضاء يتغلّب على ظلام الخورس ، شعرت بشيء مماثل (أقلّه في البدء لأن الحادث أخذ فيما بعد يتّسع اتساعاً لا يمكن لأيّ شـ طبيعي أن يُعطي فكرة عنه ...)

شعرت ، وأنا أحدق في القربانة ، أن مساحتها آخذة في الامتداد كبقعة زيت ولكن ، طبعاً ، اكثر سرعة وأشد ضياء

في باديء الأمر ، كنت أظنني وحدي ألحظ هذا التغيّر وكان يخيّل الي أن التقدّم يحدث دون أن يوقظ ايّ شوق أو يُلقي أية صعوبة .

انما رويداً رويداً ، كلّما كانت الكرة البيضاء تكبر في المسافة حتّى غدت قريبة مني ، كنت اسمع خريراً وهديراً لا يوصف كهدير الموجة الصاعدة الباسطة صفيحتها النقيّة على عالم الأشنة الذي يتمدّد ويهتزّ لاقترابها — أو كما يطقطق الأريقي عندما تندلع النار في المنبطحات ...

هكذا ، في منتصف تنهّد كبير ، يحمل على التفكير بانّه يقظة أو أنين ، كان يغمرني مدّ البياض ويتعدّاني ويغزو كلّ شيء . وفي هذه الغمرة كان كل شيء يحافظ على صورته الخاصّة وعلى حركته الإستقلالية : لأن البياض ما كان ليمحو خطوط شيء البتة ، ولا يفسد أيّة طبيعة ولكنّه كان يلج حتى الصميم من الأشياء ، حتى إلى الأكثر عمقاً من حياتها . كان هذا كما لو أن نوراً شديد البياض أضاء الكون من الداخل . وكان الكلّ يظهر وكأنه مصنوع من نوع شفّاف واحد .

خذ مثلاً ، الساعة ، عندما أضأت القناديل فاصبحت مادّته المظلمة مضيئة متألقة ، فكرت بالعالم كما ظهر لي عندئذ . وتوارد الصور هذا هو الذي أعطاني الفكرة لأقول ما اخبرتك في هذه البرهة .

اذاً بامتداد القربانة السرّي غدا العالم متأجّجاً — شبيهاً في كلّيته بقربانة كبيرة واحدة . ويمكن القول انه تحت تأثير الضوء

الداخلي الذي كان يلج اليه، كانت عروقه تتمدّد حتى التقطّع وقواها كانت متوترة للغاية . وكان يقيني ان العالم قـــد دخل في تفتّح أعماله هذا كماله ، عندما لحظت عملاً جوهرياً أعمق وأثبت يكمل فيه .

من وقت إلى وقت ، كانت قطرات مشعّة من المعدن الخالص تتكوّن على باطن الكائنات وتتساقط في موقدة النور العميق حيث تضيع ؛ – بينما تتطاير بعض الشرارات . –وفي مجال الحبّ كان يكمل تغيير يمدّد ويطهّر ويستولي على كلّ قوة للحب كامنة في الكون .

على قدر ما كانت قوته تعمل فيّ كما في سائر الكائنات كان بامكاني أن أعرفه : كان الوميض الأبيض فعّالا . كان البياض يشعل كلّ شيء من الداخل – ما كان ليلج بطرق المادّة حتّى الصميم من القلوب – ما مدّدها حتى الكسر الا ليمتصّ مادّة عواطفها واشواقها . والآن وقد امتزج بها أخذ يردّ أغطيتها دون اعتراض إلى مركزها محمّلة بعسل الحبّ الخالص .

وفي الواقع ، بعد أن أحيت القربانة اللامحدودة كلّ شيء وطهّرته أخذت الآن تتقلّص ببطء والكنوز التي جذبتها اليها أخذت تتجمّع في نورها الحيّ .

... عندما تتراجع الموجة أو تخمد الشعلة تدلّ البرك اللمّاعة وآثار النار على المساحة التي غزاها ببرهة كلّ من البحر واللهيب.– هكذا مع انكماش القربانة على ذاتها ؛ كما تنغلق الزهرة على

كمّها ، كانت بعض اجزاء الكون المنفصلة تبقى وراءها في الظلمة البرّانية . كان شيء ينيرها بعد : ولكن هذا كان روحُ نور فاسد ، متلف وسامّ . كانت هذه الأجزاء العاتية تحترق كالمشاعل أو تتأجّج كالجمر .

عندئذ سمعت الشعب يرتّل : «سلاماً ايها الجسد الحقيقي». ... وكانت القربانة محصّنة في الشعاع الذهبي. وكانت تحترق الظلمة من حولها شموع تذوب وكانت قناديل المعبد ترمي ، هنا وهنالك ، ضياءها الأرجواني .

الجوهرة

بينما كان صديقي يتكلّم ، كان قلبي يشتعل ، وروحي تستيقظ لرؤية سامية للاشياء . بغموض كنت الحظ ان العديد من التغييرات التي يظهر لنا انها تقسم العالم هي ، في الحقيقة، عمل سرّ كبير فرد ؛ وكان هذا الضياء المرئي ، لا أعلم لماذا ، يهزّ مني أعماق نفسي . ولكن ، وقد اعتدت ان افصل التصاميم والمقولات ، كنت اضيع في مشهد عالم جديد بالنسبة لعقلي المتجدد ، حيث تختلط ابعاد « الالهي » «والروح» و «المادة» ؛ حتى الصميم .

وعندما رأى صديقي اني انتظر بقلق تابع يقول :

«... ان القصّة الأخيرة التي أخبر هي قصّة اختبار شخصي. سترى هذه المرة ان ليس في الأمر رؤيا بحصر المعنى. ولكن هناك احساس اكثر شمولا أثّر على كياني بكامله ولا يزال. هاك.

في ذاك الزمان، كانت فرقتي تحارب في نجد «أفوكور». زمن الهجمات الالمانية على «ڤردون» لم ينته، وكان القتال على اشده في هذه الجهة من «الموز». وكما يعمل الكثير من الكهنة أيام القتال، كنت أحمل القربانة في حقة صغيرة بشكل ساعة.

ذات صباح، والسكون مخيّم على خنادقنا، انسحبت الى خيمتي وهناك فكرت طبعاً، في نوع من التأمّل، بالكنز الذي كنت احمل لا يفصله عن صدري سوى مغلّف رقيق من القرمز. وغالباً ما فرحت بهذا الحضور الالهي ومنه تغذّيت.

هذه المرّة، اعتراني شعور جديد سيطر على كل اهتمام آخر من الخشوع والعبادة. لقد تحققت فجأة كلّ ما في الأمر من الغرابة والخيبة، ان يحمل الانسان بالقرب منه «غنى العالم» و «ينبوع الحياة» دون ان يقدر على التملك عليهما في داخله، دون ان يتوصّل الى سبر الأغوار منهما ولا أن يحوّلها اليه. كيف يمكن ان يكون المسيح على السواء قريباً من قلبي وبعيداً عنه؟ متحداً بجسمي وبعيداً عن نفسي؟

كنت أشعر أن حاجزاً لا يُدرك ولا يُقهر يفصلني عن ذلك الذي ما كنت لأستطيع أن أمسّه اكثر، لأني كنت أقبض عليه بيديّ...

كنت أغتاظ أن أحمل «سعادتي» في كأس مطبقة ... كنت كنحلة تدندن وهي تدور حول إناء ملآن بالأري أحكم غلقه. وكنت اشدّ الجوهرة إلى صدري بعصبية، كما لو ان هذا الجهد الغريزي يمكنه أن يلج المسيح فيّ بنوع أشدّ.

اخيراً وقد نفد صبري وأزفت الساعة التي كنت فيها معتاداً وقت الراحة، أن أحتفل بالذبيحة فتحت الحقّة وتناولت.

... وتبيّن لي، في عمق كياني، ان الخبز الذي أتيت على تناوله، وان صار لحماً من لحمي، لا يزال خارجاً عنّي.

فاستغثت بكل قوّتي التأمّلية. وركّزت على الكسرة الالهية هدأة قواي ومحبتها الصاعدة. فاتضعتُ الى غير حدود، وخضعتُ واستسلمتُ كطفل لئلاّ أخالف بشيء اقلّ رغبات الضيف السماوي، ولكي اجعل تمييزي عنه غير ممكن لشدّة ما ستكون وحدتي، إذا أطعت، مع الأعضاء التي كانت نفسه تحكمهم. طهرت قلبي دون هوادة كي أجعل داخلي دائماً اشدّ شفافية للنور الذي كنت آوي فيّ.

جهود سعيدة وباطلة.

كانت القربانة دوماً أمامي، اكثر بعداً في جمع الأشواق وتفتحها، اكثر بعداً في قابلية الكائن للنفوذ الالهي، اكثر بعداً في صفاء العواطف... بالانطواء على ذاتي، وبالتطهر الدائم لكياني كنت اتقدّم فيها بلا توقّف كحجر يتدحرج في هوّة ولكن دون ان يمسّ منها القعر. ومع رقة القربانة كنت

اضيع فيها دون ان أصل إلى إمساكها ولا أن اتوافق معها . كان محورها يهرب ويجتذبني .

لأني كنت عاجزاً عن أن أسبر غور القربانة ، كنت أحلم اقلّه ان أطوّقها في كل امتدادها . ألم تكن وحدة متراصة وجد صغيرة . كنت افتّش أن أتوافق معها من الخارج ، أن اتزاوج بالضبط مع كلّ استدارتها .

لا نهاية جديدة ، كانت تنتظرني هناك وقد خيّبت رجائي .

وعندما أردت ان الفّ الكسرة المقدسة بحبي بغيرة شديدة ، لدرجة أني كنت ألتحم بها دون أن أخسر من تماسّها الثمين مقدار ذرة ، حدث فعلاً انها تغيّرت وتعقّدت شديداً تحت جهدي . كلّما كنت أفكّر بالقبض عليها ، ما كنت لأحظى بها هي ، ولكن بواحدة من ألوف الخلائق التي حياتنا مسجونة في داخلها : ألم ، فرح ، عمل ، أخ علينا أن نحبّ او نعزّي ...

وهكذا في أعماق قلبي ، في إبدال عجيب ، كانت القربانة بمساحتها تختفي تاركة إياي عرضة للكون كلّه المركّب منها ، والمأخوذ من ظواهرها .

أترك تأثير الحماس الذي أحدثـــه فيّ انكشاف الكون هذا ، الموضوع بين المسيح وبيني كفريسة عظيمة .

وعوداً الى التأثير الفريد ، تأثير عدم التوافق بيني وبين القربانة الذي هو بدء الرؤيا ، أقول إني فهمت اذاك ما الفاصل غير المنظور الذي يقوم بين الجوهرة وبيني .

يفصلني عن القربانة التي أمسك بين اصابعي كل كثافة ومسافة السنين التي عليّ أن أعيشها وأؤوّلها .

هنا تردّد صديقي برهة ثم زاد قائلاً : « لا أعلم لماذا . من زمن أشعر اني عندما أمسك القربانة لا يفصلني عنها الاّ قشرة حديثة العهد » ...

وزاد قائلاً : «كان لي دوماً نفس « حلولية » بطبيعتها[1] . كنت أحسّ الأشواق الطبيعية التي لا تقهر ، ولكن دون أن أجسر على استعمالها بحرية لأني ما كنت لأعرف أن أوفّق بينها وبين ايماني . منذ هذه الاختبارات المختلفة (وغيرها ايضاً) يمكنني القول إني لقيت لوجودي النفع الذي لا ينفد ، والسلام الذي لا يفسد » .

أعيش في أحشاء « عنصر فرد » ، مركز كلّ شيء وتفصيله ، حبّ شخصي ، وقوة كونيّة .

لكي أبلغ اليه وأذوب فيه ، أمامي الكون بكليته ، بمعاركه الشريفة ، في ابحاثه المغوية ، وعشرات النفوس التي يجب ان تكمل

---

(١) الحلولية الحقة (في المعنى الأساسي للكلمة ... وكما عبر عنها القديس بولس الله كلٌّ في الكل) ولكنها حلولية شرعية حقاً . لأن المسيحيين قد غدوا فعلاً ، في آخر المطاف ، واحداً مع الله . فالحالة هذه لا تحصل بالتوحيد «الله يصير كل شيء » ولكن بعمل حبّ : مميز ومشترك « الله كل في الكل » . وهذا كله الحقيقة في جوهرها . (حاشية زادها المؤلف فيما بعد) .

وتشفى . في معمعة العمل الإنساني ، أستطيع ويجب عليّ أن اعمل بلا هوادة . على قدر ما آخذ منه حصّتي ، على قدر ذلك أؤثر على الواقع باجمعه ، وعلى قدر ذلك أبلغ المسيح وأضمّه اليّ .

الله ، الكائن الأزلي ، بذاته ، يمكننا القول إنّه يتكوّن في كلّ مكان ، لأجلنا .

والله هو أيضاً قلب كل شيء ، لدرجة أن جمال الكون الواسع يمكنْ أن يهدم او ييبس ، او ينتزع مني بالموت دون ان ينقص فرحي ، يختفي الغبار الذي كانت تحييه هالة من القوة والمجد ، ويسلم الواقع الجوهري حيث كلّ كمال يُمتلك بدون فساد . فاذا ما تقهقرت الأشعة الى ينبوعها ، ضممتها ايضاً هناك كلّها .

لأجل هذا لا تقلقني الحرب عينها . بعد أيام قلائل سنُدفع لاسترجاع « دوومُون » ــ حركة عظيمة لا تتصوّر ، تدلّ وترمز الى تقدّم نهائي للعالم في تحرير الأنفس . ــ لقد قلت لك اني ذاهب الى هذه المعركة بورع ، من كل نفسي ، محمولاً بزخم واحد عظيم ، عاجزًا عن ان اميّز فيه أين تنتهي أهواء الإنسانية وأين تبدأ العبادة .

وإذا قدر لي ألاّ أنزل من هناك ، أريد ان يبقى جسدي معجوناً في طين الأقوياء كاسمنت حيّ وضعه الله بين حجارة المدينة الجديدة » .

هذا ما حدثني عنه صديقي الصدوق ذات مساء من تشرين الأول ــ من كانت نفسه تشترك عفوياً بحياة الأشياء الفريدة، ومن ينام جسده الآن حسب رغبته في مكان ما حول « تيومون »[1] في أرض موحشة .

كتب قبل معركة « دوومون »
١٤ تشرين الأول سنة ١٩١٦

(١) تييومون « Thiaumont » مزرعة قريبة من « Douaumont » «الناشر» .

قوّة المائدة الرّوحيّة

وبينما كانا سائرين سوية ،
اذا مركبة نارية وخيل نارية
قد فصلت بينهما وطلع ايليا
في العاصفة نحو السماء .
(سفر الملوك)

كان الرجل يمشي في الصحراء يتبعه رفيقه عندما انقضّ عليه « الشيء » . وكان «الشيء» يظهر من بعيد، جدّ صغير ، يتزحلق على الرمل ، وهو ليس بأكبر من راحة يد ولد ، ظل اصهب وهارب شبيه بطيران السمن المتردد ، عند الغروب ، على البحر الأزرق ؛ أو غيمة من البرغش المتراقص في الشمس عند المساء ، أو عاصفة من الغبار الراكض في الصحراء عند الظهر .

ظهر الشيء وكأنه لا يهتمّ بالمسافرينْ ، كان يهيم على هواه في الصحراء ، ولكن فجأة ركض بقدمٍ ثابتة وانقضّ كسهم عليهما .

عندئذ رأى الرجل أن البخارَ الأصهب الصغير لم يكن إلاّ محور «كائن» يكبره بصورة غير متناهية ، كان يتقدم لا إطار له ، ولا شكل ، ولا حدّ . على قدر ما استطاع أن يرى كلّما كان «الشيء» يتقدّم كان يكبر بسرعة غريبة مقتحماً كل المسافة . بينما كانت رجلاه تطآن عشب السيل الشائك ،كانت جبهتُه

تصعد في السماء كغيمة مذهّبة تحمرّ الشمس وراءها . ومن هنا وهناك أخذ الأثير يهتزّ بشكل محسوس، وقد غدا حيّاً تحت مادة الصخور والنباتات الغليظة ــ كما يرتجف المنظر في ايام الصيف خلف أرض سخنة .

كان القادمُ القلب المتحرك في غاية الدقّة .

وقع الإنسان ووجهه أرضاً ــ غطّى وجهه بيديه وانتظر .

خيّم السكون حوله .

وبعدئذ ، فجأة ، مرّت نفحة حارّة على جبهته ، اقتحمت حاجز أجفانه المطبّقة ودخلت حتى نفسه .

أحسّ « الانسان » أنه لم يعُد ذاته فقط، بل استولت عليه نشوة لا تقهر، كما لو أن كلّ حياة، وقد اندفعت دفعة واحدةً في قلبه الصغير الضيّق ، ابدَعت من جديد وبقوّة ألياف كيانه الضعيفة .

وفي الوقت عينــه ضايقه قلق خطر يفوق قدرة الانسان ــ شعور مبهم بأن القوة التي انقضّت عليه كانت عكرة كدرةــ جوهر من الشرّ كلّه ممزوج مع الخير كلّه .

كان الإعصار في داخله .

وفي اعماق الكائن الذي اقتحمته كانت عاصفة الحياة المتناهية في النعومة والقساوة، تدندن لنقطة النفس السرّية التي ما هزّتها كلّها .

« دعوتني ، هأنذا . مطارد من الروح خارج الطرقات التي تسلكها القافلة الانسانيّة تجاسرت أن تجبه الوحدة العذراء . وقد اتعبتك تجريدات وتخفيفات وثرثرة الحياة الاجتماعية، أردت أن تقيس ذاتك مع الواقع الكامل والوَحِش .

كنتَ بحاجة اليّ لتكبر ؛ وكنتُ انتظرك لتقدسني .

دوماً كنت تريدني دون علم منك . — وكنت أجتذبك .

الآن أنا عليك للحياة أو للموت . — لا يمكنك أبداً أن تتراجع — أن ترجع للمسرّات المألوفة وللعبادة الهادئة ، من رآني مرّة لا يمكنه ابداً أن ينساني : إنه يهلك معي او يخلص معي .

« هل تأتي ؟

« ايتها الإلهية والقوية ما اسمك ؟ تكلّمي .

« انا النار المحرقة والماء المجندل . — الحبّ المربّي والحقيقة التي تمرّ . كلّ ما يفرض نفوذاً وما يجدّد ، كل ما يثور ويوحّد : قوة ، اختبار ، تقدم ، المادّة هو أنا .

لأني أصرع محبيّ بقساوتي — لأن الذي يمسّني لا يعلم ايّ قوة يثير ؛ يخافني الحكماء ويلعنوني . يحتقروني بكلماتهم كشحاذة ، كساحرة ، كعاهرة . ولكن كلماتهم تعاكس الحياة ، والفريسيّون الذين يحكمون عليّ يهلكون في الروح التي فيها ينفردون . يتضوّرون جوعاً ، وسيتركهم تلامذتهم لأني جوهر كلّ ما يلمس ولا غنى للناس عني .

انت الذي فهمت ان العالم — العالم الذي أحبّه الله — له — قبل الأفراد —[1] نفس عليه أن يفديها ، افتح كيانك واسعاً لوحيي ، خذ روح الأرض التي عليك ان تخلّص .

كلمة اللغز المطلقة — الكلمة التي تبهر ، المكتوبة على جبهتي ، والتي ستحرق عينيك من الآن وصاعداً حتى ولو انك اطبقتها هي هذه : «لا شيء ثمين الاّ ما هو أنت في الآخرين ، وما الآخرون فيك . فوق ، الكلّ واحد . فوق ، الكل واحد ! » .

ألا تحسّ بنفحتي التي تقتلعك وتحملك ؟ قف يا رجل الله واسرع . حسب الطريقة التي تستسلم بها تجرّنا العاصفة الى الأعماق المظلمة أو ترفعنا حتى زرقة السماء . خلاصك وخلاصي يتعلّق على هذه البرهة الأولى .

« أيتها المادّة — أترين — ان قلبي يرتجف . بما انكِ انتِ هنا قولي لي ما عليّ ان أعمل ؟ »

« احمل السلاح يا اسرائيل وحارب بجسارة ضدّي » .

وقد انسابت النسمة كشراب سحري أخذت تتحدّى كعدوّة.

كانت تحمل الآن في طيّاتها رائحة للحرب حادّة .

رائحة الغابات الصهباء ، جوّ المدن المحموم ، العطر المحزن القاتم المتصاعد من الشعوب المتحاربة .

---

(١) روح «الكلّ» . راجع صفحة ٤٠٣ من الجزء الخامس لمؤلفات تيار : « مستقبل الانسان » . « الناشر » .

كل هذا كان يكرّ في أغطيتها ، دخان مجمع من زوايا الأرض الأربع .

ارتجف الإنسان المنحني كما لو انه أحسّ بالمهماز وقفز منتصباً بوجه العاصفة .

كل روح البشرية ارتجفت ــ ذكرى مظلمة لأول يقظة بين الحيوانات الأشدّ قوة ، والأمضى سلاحاً ــ صدى محزن لجهد طويل لزرع القمح واختراع النار ــ خوف وحقد امام القوة الضارّة ــ جشع المعرفة والاقتناء ...

من وقت ، في نعومة أول لقاء ، كان تمنّى عفوياً لو أنّه يضيع في النَفَس الحارّ الذي كان يكتنفه .

موجة الغبطة المذيبة نوعاً، غدت إرادةً عنيفة لكينونة اكثر .

كان الرجل قد أدرك العدوّة والفريسة الوراثية ــ مكّن رجليه في الأرض وابتدأ يحارب .

حارب أولاً لئلاّ يقهر ، وبعدها حارب للذة المحاربة ولكي يشعر أنه كان قوياً . وعلى قدر ما كان يحارب ، على قدر ذلك كان يحسّ ان مزيداً من القوة كان يصدر عنه ليقف بوجه العاصفة ؛ وكان يصدر عن هذه فيض جديد ويتغلغل محرقاً في شرايينه .

كالبحر في بعض الليالي ، يُضيء حول السابح ويدغدغ في تموّجاته بقدر ما تضربه بشدّة الأعضاء القويّة ، هكذا كانت القوة المظلمة التي كانت تصارع الانسان، تشع بألف نار حول جهده.

بايقاظ قواهما المتضادّة المتبادل ، كان يحرّك قوته ليسيطر عليها ، وكانت تظهر كنوزها لتسلمه ايّاها.

« غصْ في المادّة يا ابن الارض واسبح في مياهها الحارّة لأنها منبع حياتك وفتوتها .

آه لقد ظننت انك تقوى ان تستغني عنها لأن الفكرة اشتعلت فيك ، ـــ كنت تأمل أن تكون اشدّ قرباً من الروح حينما تهمل بعناية كل ما يُمسّ ـــ اكثر الوهية لو عشت في الفكرة الصافية ، اكثر ملائكية ، على الأقل ، فيما لو هربت من الأجساد .

والآن لقد قاربت ان تهلك من الجوع .

اعضاؤك بحاجة الى الزيت ، ـــ عروقك الى الدم ، ـــ نفسك الى الماء ، ـــ بصيرتك الى الواقع ـــ يازمك ايّاها بقوة ناموس طبيعتك ، أتفهم جيّداً ؟...

ابداً ابداً إذا اردت أن تحيا وتنمو لا يمكنك ان تقول للمادة : « رأيتك كفاية ، أنهيت دورة اسرارك ، ـــ انتزعت منها ما يُغذّي فكري دوماً ـــ على كلّ أفهم كحكيم الحكماء انك تحمل في ذاكرتك صورة كل ما تأهل به الأرض وما يسبح في المياه . ولكن هذا العالم يصبح كلا شيء بالنسبة الى نفسك لأن كلّ معرفة مجرّدة هي كائن باهت ـــ لأن المعرفة لا تكفي لفهم العالم ، يجب أن ترى ، أن تلمس ، أن تحيا بالحضرة ، أن تشرب الوجود حاراً في قلب الواقع بالذات .

لا تقل ابداً كبعضهم : «فنيت المادة، ماتت المادّة، حتى نهاية الزمن ، ستظلّ المادّة فتيّة طافحة ، مشعّة وجديدة لمن يريد» .

لا تردّد ايضاً : «قُضي على المادّة ، المادة سيئة !» لقد أتى أحدهم وقال : «تشرب السّم ولا يؤذيك» — وايضاً : تخرج الحياة من الموت ، — واخيراً لفظ كلمة تحريري النهائي : «هذا هو جسدي» .

لا ، ليس الخلوص في الانفصال عن الكون ، ولكن في تقصّ له أشدّ عمقاً. إنه في حبّ الجوهر الفرد غير المحدود، الذي يتداخل في كل شيء ويعمل فيـــه — أبعد من المنطقة الميتة حيث يتحرك الأشخاص والأعداد — إنه في تماس طاهر مع الذي «هو ذاته مع الكل» .

آه ما اجمل الروح يسمو مزيّناً بكنوز الأرض !

اسبح في المادة ، يا ابن الانسان . غصْ فيها حيث انها اشدّ عنفاً واكثر عمقاً ! صارع في تيّارها واشرب موجها ! هي التي هدهدت آنذاك لاوعيك ؛ — هي التي ستحملك الى الله !»

والتفت الرجل في قلب العاصفة محاولاً ان يرى رفيقه .

وفي هذه البرهة لحظ ان الأرض في استحالة غريبة تهرب وتكبر وراءه .

كانت الأرض تهرب ، لأن هنا ، تحته بالذات ، كانت تفاصيل الأرض الحقيرة تنقص وتذوب . — بينما كانت الأرض تكبر ، هناك ، في البعيد ، وكانت دائرة الأفق تتّسع وتتّسع دون توقّف...

ورأى الرجل ذاته في وسط كأس شاسعة تطبق شفتيهـــا عليه . — عندئذ وقد أفسحت حرارة المصارعة في قلبه مجالاً لرغبة جامحة للاحتمال اكتشف في ومضة — حاضرة اين ما كان حواليه — الواجب الوجود الواحد .

فهم الى الأبد ان الانسان ، كالذرّة ، لا يتقيّم الاّ في جزئه الذي يشدّه الى الكون .

رأى في وضوح مطلق فراغ أجمل النظريات الواهي ، اذا ما قوبلت بكمال اي حادث طفيف حسب حقيقة وجوده الوضعيّة الكاملة .

تأمل ، في جلاء كلّي ، ادعاء الانسان المضحك في تنظيم العالم ، أن يفرض عليه عقائده ، أقيسته واصطلاحاته .

تذوّق ، حتى القرف ، ابتذالية افراحه واتعابه ، أنانية اهتماماته الحقيرة ، وتفاهة شهواته ، وضعف قوته على الحسّ .

أشفق على الذين يخافون أمام زمان ، أوْ لا يعلمون أن يُحبوا أبعد من وطن .

اشياء كثيرة خصّته آنئذ وجعلته يثور ، خطابات الملافنة وأحكامهم ، اثباتاتهم ومدافعاتهم ، نهيهم الكون أن يتحرّك...

...كل هذا بدا له مضحكاً ، لا وجود له اذا قوبل مــع

« الواقع » المهيب ، الجارية منه القوّة التي تظهر له ، عالمية في حضورها ، — غير متحركة في حقيقتها — حقودة في انتشارها — لا متغيّرة في هدوئها ، — أمومية واكيدة في حمايتها .

لقد وجد أخيرًا نقطة ارتكاز وملجأ خارج المجتمع .

سقط رداء ثقيل عن اكتافه وهوى وراءه : ثقلُ ما يوجد من خطأ ، من ضيق ، من ظلم ، من تصنّع ، من انسانية في البشريّة .

موجة من الظفر حرّرت نفسه .

وأحسّ أن لا شيء في العالم ، من الآن وصاعدًا ، يمكنه أن ينزع قلبه من الواقع السامي الذي كان يبدو له — لا شيء ، لا الانسان فيما عنده من فرديّة وروح تدخّل (لأنــه كان يحتقره هكذا) — لا السماء ولا الأرض في العلوّ ، في العرض ، في العمق ، في القوّة (لأنه اليها كان يفزع دوماً) .

تجديد عميق حدث فيه بنوع انه صار غير ممكن له ، الآن ، أن يكون انساناً الاّ على مستوى آخر .

حتّى انه ولو نزل الآن الى الأرض المألوفة — ولو انه كان يقرب من رفيقه الأمين الذي لا يزال جاثماً هناك على رمل الصحراء — من الآن وصاعدًا سيظل غريباً .

نعم كان يعي ذلك : حتى لأجل اخوته في الله ، الذين هم خير منه ، سيتكلّم حتماً لغة لا يفهمونها ، هو الذي قرّر السيّد ان يسيّره على طريق النار — حتى الى الذين كان يحبهم اكثر ،

سيكون حبّه عبثاً لهم لأنهم سيشعرون أنه يفتّش حتماً من ورائهم عن شيء آخر .

لأن المادّة وقد أسفرت عن اضطرابها وتعدّدها كشفت له عن وحدتها المجيدة فأصبح الآن خواء بينه وبين رفاقه — لأنها انتزعت قلبها إلى الأبد من كلّ ما هو محلّي ، فردي ، جزئي غدت منذئذ له ، وحدها ، في كلّيتها ، أباه ، أمّه ، عائلته ، جنسه ، حبّه الوحيد والمحرق .

ولا أحد في العالم ليتمكّن من شيء ضدّ هذا .

وقد أشاح بعينيه بحزم عن كلّ ما هو زائل ، استسلم في ايمان فائض ، إلى النفحة التي كانت تجتذب الكون .

وفي قلب العاصفة كان ضوء يكبر وله نعومة نظرة وحركتها... وانتشرت حرارة أبعد من أن تكون اشعاع موقدة قاسٍ واقرب منها إلى فيض جسداني غني ... واصبحت المسافة العمياء الموحشة معبّرة وشخصية . — وكانت امتداداتها العديمة الشكل تطوى كخطوط وجه لا يوصف .

وكان كائن يرتسم في أيّ مكان ، جذاب كنفس ، ملموس كجسد ، واسع كالسماء . — كائن يمتزج بالأشياء مميّز عنها — اسمى من جوهرها الذي يلتحف به، مع انه يتصور فيها..

كان الشرق يولد في قلب العالم .

كان الله يشع في قمة المادّة المروحنة بفيضاناته .

جثا الرجل على ركبتيه في العربة النارية التي كانت تنقله . وقال :

نشيد الى المادة

مباركة انت يا مادّة خشنة ، يا أرضاً جدباء ، يا صخرة قاسية ، يا من لا تستسلمين الاّ للقساوة وتجبرينا على العمل اذا اردنا ان نأكل .

مباركة انت ، يا مادّة خطرة ، يا بحراً هائجاً ، يا شهوة جموحاً ، يا من تفترسينا إذا لم نكبلْك .

مباركة انتِ ، يا مادة قادرة ، يا تطوراً لا يقهر ، يا واقعاً يولد دوماً ، انتِ يا من تفجّرين كلّ وقتٍ اسوارنا وتجبرينا ان نتبع الحقيقة دوماً وبعيداً .

مباركة انتِ يا مادّة شاملة ، يا ديمومة لا محدودة ، يا أثيراً لا شاطئ له ، يا هوةً مثلّثة للانجم ، للذرات ، للاجيال — انت يا من بتعدّيك واذابتك قياساتنا الضيّقة تكشفين لنا عن أبعاد الله .

مباركة انتِ يا مادّة لا يُسبر غورها ، انتِ من بامتدادك بين أنفسنا وعالم الإنيّات، تجعلينا ننحل من شوق خَرْقِ حجاب المرئيات غير المنسوج .

مباركة يا مادة فانية، يا من تتجزئين يوماً فينا فتدخلينا بالقوّة الى قلب ما هو كائن .

بدونك ، ايتها المادة ، بدون هجماتك ، بدون انسلاخاتك ، نعيش جامدين ، نائمين ، اطفالاً ، جهلة انفسنا والله ، انت

يا من تميتين وانت يا من تضمدين — يا من تصمدين وتخضعين ، يا من تهدمين وتبنين — يا من تكبلين وتحررين — يا مائيـــة نفوسنا ، يا يد الله ، يا جسد المسيح ، ايتها المادة أباركك .

أباركك ، يا مادة ، وأحييك لا كما يصفك اقطاب العلم ومعلمو الفضيلة ناقصة مشوهة . يقولون خليطاً من القوات الغاشمة أو شهوات سافلة ، ولكن كمـــا تظهرين لي الآن في كليتك وحقيقتك .

أحييك يا قدرة لا تنفد من الكيان والتغيّـر حيث ينبت ويكبر الجوهر المختار .

أحييك يا قوة شاملة من التقرّب والوحدة حيث يرتبط عالم « المونادات » وحيث تتّجه كلّها نحو طريق الروح .

أحييك يا ينبوع نفوس متناسق[1] ، يا بلوراً شفافاً منه استلّت الاورشليم الجديدة .

أحييك ، يا بيئة إلهية ، حبلى بالقوّة الخالقة ، يا محيطاً هيّجه الروح ، يا طيناً مجبولاً ومروضاً بالكلمة المتجسد .

وقد ظنّ الناس أنهم يخضعون لنداثك الذي لا يقهر فتهافتوا غالباً بمحبّة لك إلى لجة خارجيّة من الأستمتاعات الأنانية .

إنعكاس يخدعهم أو صدى .

(١) وفي الخلق التطوري ، كانت المادة ضرورية ليظهر الروح عـــلى الأرض . «المادة هي الرحم للروح» كما يقول الاب تيار دي شاردن الرحم اذاً حامل لا مبدأ . « الناشر »

أفهمه الآن .

للبلوغ اليك أيتّها المادّة يجب ، وقد انطلقنا من احتكاك شامل مع كلّ ما يتحرك هنا ، أن نحسّ شيئاً فشيئاً بأن الأشكال الخاصة لكلّ ما نمسك تتلاشى بين ايدينا ، حتى نظلّ على اتّصال مع إنية كلّ الأشياء الثابتة والوحدات .

يجب ، إذا اردنا ان نحصل عليك ، أن نعظّمك بالألم بعد ضمّك بلذة بين ذراعينا .

انك تملكين ، ايتها المادة ، في الأعالي الصافية حيث يتخيّل للقديسين أنهم يتحاشونك — ايّها الجسد الشديد الشّفافيّة والحركة التي لا نميّزه ابداً عن الروح .

ايتها المادة ، اجذبيني الى فوق بالقوة والانفصال والموت . اخيراً اسلبيني هناك حيث بالامكان أن أقبّل الكون ببراءة[1] .

---

(١) لا ننغش البتة ! ما كان الأب تيار دون فطنة ليخوضها حرباً ضروساً ضد المادة لو لم يكن سبق فتهيأ لها ، لا على الهامش ، بل في افناء ذاته في تصوف تقليدي وفي حياة تقشفية الأشد مراساً : تقشف طفولة وشباب أمين دائم للمثال المسيحي الأعلى ، وفيما بعد تقشف الاجابة الواعية والدائمة لمتطلبات دعوة حملته على السير ، دون هوادة ، في طرق الكمال الصاعدة حتى هذه الوحدة : « ... يغدو فيما بعد غريباً ... ويتكلم فيما بعد وبدون اي اعتراض لغة لا تفهم ، هو الذي صمم له الرب ان يسير على طريق النار ... »

«ويقول الأب : ان يستولي الله علي ويجلببني فرد ذلك الى اهمية معنى مشيئة الله التي سريعاً ما نمت في حياتي الروحية » (قلب المادة . لم يطبع) .

لقد لزم هذا السير الطويل والبطولي عبر الليل التصوفي مرفقاً بتطور غير عادي للفضائل الالهية الايمان والرجاء والمحبة حتى غدت المادة « شفافة » في نظر الأب تيار وكشفت له فيها مع التقديس السامي النابع من التجسد والافخارستيا حضور المسيح المشع .

وفي الأسفل وقد اصبحت الصحراء هادئة كان شخص
يبكي : ابي ، ابي ، اي عاصفة هوجاء اقتلعته ! »
وعلى الارض رداء مطروح .

جرزة ، ٨ آب ١٩١٩

إذاً كي نفهم « نشيد المادة » فهماً صحيحاً وجب ان نضعه في نهاية الطرق المطهرة ، قبالة القمة التي عليها تتلألأ اورشليم السماوية .

وعليه فالمسيحي الذي لم يدرب بعد يضل بصورة جسيمة اذا ظن ان باستطاعته ان يسير على خطى الأب تيار اذا لم يكن سبق وألزم ذاته ، على غراره ، بالسير على طرق التقشف التقليدية . « الناشر » .

خواطر
اختارتها فرناند ترديفل

حضور الله في العالم
الإنسانية تسير
معنى الجهد الإنساني
في المسيح الكامل

بقلب فرح فلنعبد المسيح المولود
بأنشودة جديدة .

حضور الله في العالم

١

لنصلِّ

ايها المسيح يسوع ، إنك تحمل حقاً في حِلْمِكَ وانسانيتك كلَّ عظمة العالم الذي لا يرحم . لهذا ، للاندماج غير الموصوف المحقق فيك ، الشيء الذي ما كان لفكرنا ولا لاختبارنا أن يتجاسر فيجمعه ليعبُده : الجوهر الاول والكلّية ، الوحدة والكثرة، الروح والمادة، اللامتناهي والشخصي – للإطارات اللامحددة التي يعطيها هذا المركب لوجهك ولعملك، يستسلم قلبي بمرارة اليك وقد أخذنا بالحقائق الكونية .

أحبك يا يسوع للجمع المخبأ فيك ، والذي نسمعه يضجّ ويصلّي ويبكي مع سائر الكائنات ... عندما نَلزّ بك .

أحبك لسموّ احكامك وثباتها الذي لا يلين ، بهذا تتنوّع صداقتك الناعمة بحتمية صلبة ، وتلفّنا بلا رحمة في طيّات إرادتها .

أحبك كالينبوع ، المحيط العامل المحيي ، آخر العالم ونهايته ، حتى الطبيعي ، ومصيره .

أحبك ، يا مركزاً يلتقي فيه الكل ويمتد في الأشياء كلها ليجذبها اليه ، لامتدادات قلبك ونفسك في الخلق كله بالنعمة ، والحياة ، والمادة .

يا يسوع ، المتواضع كقلب ، الحار كقوة ، الحميم كحياة ، يا يسوع الذي فيه أستطيع أن أذوب ، ومعه يجب ان أسيطر وأتحرر — أحبك كعالم ، كالعالم الذي أغواني — وهذا أنت ، وقد فطنته الآن ، الذي يحدسك البشر اخوتي ويتبعونك ، حتى الذين لا يؤمنون ، عبر سحر الكون الواسع .

يا يسوع ، يا مركزاً نحوه يتحرك الكل تنازل وعين لكلنا ، اذا امكن ، مكاناً بين الجواهر البسيطة المختارة والمقدسة التي انتشلتها بعنايتك واحدة واحدة من الخواء الحالي ، والتي تلتصق رويداً بك في وحدة الأرض الجديدة .

٢

لم يكن الزمن المديد الذي سبق الميلاد الأول ليفرغ من المسيح ، بل كان المسيح يلجه بتياره القوي . هي حركة تفكيره التي تخص الأجرام الكونية ، وتوجه تيارات الكرة الحية الاولى . هو اعداد ميلاده الذي عجل تطور الغريزة وتفتق الفكر على الأرض . لا تتشكك فيما بعد ، اعتباطياً ، من الانتظار اللامحدود الذي فرضه علينا المسيح . ما كنا بحاجة

لأقلّ من أشغال الانسان الأول المجهولة والمخيفة ، والجمال المصري المديد، وانتظار اسرائيل القلق، وعبير المتصوّفين الشرقيين المصفّى ببطء ، وحكمة اليونان التي طالما صارت مرهفة خالصة، حتّى تتمكّن الزهرة ان تتفتّق على غصن يسّى والانسانيّة . كلّ هذه الاستعدادات كانت لازمة كونياً وحياتياً حتى يطأ المسيح برجله المسرح الإنساني . وكان هذا العمل محركاً بايقاظ نفسه العاملة الخالقة من حيث ان هذه النفس الانسانية كانت مختارة لتحرك الكون . عندما ظهر المسيح بين ذراعي مريم، كان قد رفع العالم .

٣

يضعف الكائن ثم يختفي، عندما نحاول أن نُجزئه بدقّة في المدى ، أو (هذا يعود الى ذات الشيء) أن نرميه دوماً في أعماق الزمن ، وبهذا يُشبه النهر الذي يضعف تدريجياً إلى أن يختفي في مستنقع عندما نتوصّل الى نبعه . عظمة النهر تفهم من مصبّه لا من نبعه . وليس سرّ الإنسان كذلك في تخطي مراحل حياته الجنينيّة (التكوينية والشخصيّة) انما يكمن في طبيعة نفسه الروحية . والحال أن هذه النفس ، كلها تآلف في عملها ، لا تدرك بالعلم الذي في جوهره يحلّل الأشياء الى عناصرها وإلى مقدّماتها المادّية . وحده الحدس الصميمي والتفكير الفلسفي يمكنه أن يكتنفها .

يخطأ تماماً من يفكّر أن الانسان يعود الى المادة اذا ما اكتشفت له أصول عديدة وعميقة في الأرض. فبهذا لا يُلغي الروح بل يختلط كخميرة في العالم. فلا نجاري هؤلاء ونعتقد مثلهم أنه من الضروري أن نجهل ظروف منبع الإنسان الزمنيّة كي يكون له مع السماء اتّصال.

٤

عندما غمرني وجودك بضيائه يا ربي، أردت أن أجد فيه الواقع الملموس في أعلى ذروته.

الآن بما إني أضبطك، با استقرارًا سامياً، وبما إني اشعر بذاتي محمولة بك، أتحقّق أن سرّ اشواقي العميق لم يكن أن أملك بل أن أُمْلك.

أشتاقك نارًا لا شعاعاً ولا مادة لطيفة، وعرفتك في حدس اللقاء الاول. لا راحة لي، هذا ما أتحقّقه، إلاّ اذا انقضّ منك عليّ نفوذ فعّال ليغيّرني.

هاك الكون المشتعل ------

لتمتدّ الأغوار الكوكبية في مجتمع من الشموس دائم العجب. ولتمدّ الاشعاعات الى غير نهاية، من جهة من الطيف وأخرى، دائرةً تنوّعاتها وتداخلها.

ولتجذب الحياة، من بعيد، المائية التي تجري في أغصانها العديدة.

ولتكبر ، إلى ما لا نهاية له ، رؤيتنا القوات السرّية التي تنام — وصغار الموجودات التي لا تحصى — والمسافات التي لا تُدرك لأننا لا نرى منها الاّ نقطة .

من كل هذه الاكتشافات يكسب الصوفي فرحاً لا زغل فيه ، لأن كلّ اكتشاف يولجه اكثر واكثر في محيط الطاقة . ولن يشعر كفاية بسيطرة قوات الأرض والهواء حتى يخضع لله حسب هواه .

هو الله ، الله وحده ، يحرّك بروحه عظمة الكون الهائج .

٥

صوت صافٍ صعد من خلال السكون ، — خصلة من اللون الرائق استرسل في البلور ؛ ضوء مرّ في قعر العيون التي أحب ...

ثلاثة أشياء صغيرة وقصيرة : أغنية ، شعاع ، نظرة .

لهذا ظننت أولا أنها تخترقني لتبقى وتضيع فيّ .

بدل هذا ، هي التي امتلكتني واختطفتني ...

لأن أنين الهواء وتنوّع الأثير ، وتعبير النفس ، ما كانت جدّ دقيقة وسريعة الاّ لتدخل حتى الصميم من كياني حيث تتجمّع بشدّة قوى الإنسان حتى تؤلف نقطة واحدة . لقد انسكب العالم فيّ واجتذبني اليه برأس الأسهم الثلاثة الحادّ التي رماني بها ...

يتخيّل الينا بالإحساس أنا نرى الخارج يأتي الينا بتواضع ليجعل لنا كياناً ويخدمنا . وهذا ليس سوى ظاهر سرّ المعرفة .

عندما يتجلّى العالم لنا فهو ، في الحقيقة ، الذي يأخذنا اليه ويسكبنا في شيء منه ، موجودٍ دوماً فيه ، واكثر كمالاً منه .

وقد ابتلعت الانسان متطلّبات الحياة العملية ، وقد اضحى انجابياً بكليته ، لم يعد يرى الاّ شتاتاً أو أقلّ ، هذه المرحلة الثانية من شعورنا ، هذه المرحلة حيث العالم الذي دخل الينا ينسحب ويختطفنا . كادت تهزّه الهالة العاطفية الغازيّة التي بها ينكشف لنا ، بايّ احتكاك كان ، جوهر الكون الوحيد .

٦

كالحيّاء (biologiste) المادي الذي يظن أنه يزيل النفس بتفكيكه أجزاء الخلية الحية الفيزيو - كيمائية ، يتخيّل لعلماء الحيوان انهم عطلوا السبب الاول بتقدمهم في اكتشاف التركيب العام لعمله . لقد حان الوقت أن نلقي جانباً ونهائياً مشكلة طرحت بشكل هكذا مغلوط . لا يبرهن النشوء العلمي ، بحصر المعنى ، شيئاً مع الله أو ضدّه . إنه يستنتج فقط عملية تسلسل في الواقع . إنه يقدّم لنا تشريحاً للحياة لا معناها الغائي . انه يثبت « ان شيئاً تنظّم ، وشيئاً آخر قد نشأ » . لكنه غير قادر على تمييز الشروط البعيدة لهذا النشوء . أن يقرر اذا كانت الحركة النشوئية هي مفهومة بذاتها ، أو انها تتطلّب خلقاً تقدمياً ودائماً من قِبَل المحرك الاوّل ، فهذه مسألة تتعلّق بعلم المعقولات .

يجب ترديد هذا بلا هوادة ، وهو أن النشوء لا يفرض فلسفة . أيعني هذا أنه لا يُدلّل على واحدة ؟ لا ، دون شك . ولكن الغريب هنا أن يُرى أن الأنظمة الفكرية التي تتفق معه اكثر من غيرها هي تقريباً تلك التي ظنّت انها المهددة اكثر من غيرها . مثلاً المسيحية مؤسسة على هذا الاعتقاد المضاعف ، وهو ان الانسان موضوع تريده ، بنوع خاص ، القوّة الالهية عبر الخلق ، وإن المسيح هو الغاية المعيّنة ، من لـــدن الله وطبيعياً لكمال البشرية . أنستطيع أن نصبو إلى نظرة اختبارية للاشياء اكثر انسجاماً مع نظريات الوَحدة، من تلك التي بها نكتشف كائنات حيّة ، ليست موضوعة بنوع اصطناعي الواحدة قرب الأخرى لغاية مختلف عليها من الفائدة أو اللذة ، ولكنها مشدودة بصفة الشروط الطبيعية الواحدة الى الأخرى في حقيقة الجهد الواحد نحو كينونة أشدّ ؟...

٧

حيث إن أول نظرة منّا لم تقع الآ على التوزيع اللاامنسجم من القمم والمنخفضات والمياه ، فقد توصّلنا إلى حبْك شبكة متينة من الارتباطات الحقيقية ، وأحيينا الارض باشراكها بالبعض من وحدتنا .

لهذا ، ها إن الحياة ، التي أدخلها عقلنا إلى الكمية المادية الكبيرة التي أتيح لنا ان نلمس ، تحاول أن تصعد فينا تحت

شكل جديد بتدفّق مخصب ، بعد أن أعطينا في نظرتنا إلى الأرض الحديد والحجر شخصيّتها ، نشعر بشوق معدي الى ان نبني ، بدورنا ، بمجموعة نفوسنا ، بنايةً روحيةً رحبة مثل تلك التي نتأمل ، وقد تكوّنت من تفاعل الأسباب المكونة الأرض . حول الكرة الصخرية تمتد طبقة حقيقية من المادة الحيّة ، طبقة الأحياء والانسان ، الكرة الحيّة . قيمة علم الأرض التربوية هو أننا باكتشافنا أرضاً في الحقيقة واحدة ، أرضاً تؤلف جسداً واحداً لأن لها وجهاً واحداً ، نتذكر مقدرات التنظيم السامي المخزونة في منطقة الفكر الذي يلفّ العالم . في الحقيقة ، ليس بممكن أن نسمّر عادةً أعيننا على الآفاق الفسيحة التي اكتشفها العلم ، الاّ وينبجس شوق مبهم الى أن نرى معرفةً وتجانساً في نمو يربط بين البشر ، حتى لا يبقى ، أخيرًا ، تحت تأثير جاذبية إلهية الاّ قلب وروح على وجه الأرض .

٨

إذا تأمّلنا جيداً ، ولو في نقطة واحدة ، وجدنا ان كلّ حدث له حتماً ، بقوة وحدة الكون الأساسية ، قيمة واصولا في كلّ مكان . الى اين تقودنا هذه القاعدة اذا ما طبقناها على معرفة الانسانية الشخصية ؟ كنّا معرضين للقول «ان الضمير لا يظهر بوضوح كلّي الاّ عند الانسان . فالضمير اذاً حدث وحيد لا يهم أمره العلم» .

هل يجب أن نعيد مع تصحيح « ان الضمير يظهر بوضوح عند الانسان » . « اذاً إن شوهد في هذا السّنى الوحيد ، فإنّ له امتداداً كونياً وهكذا يتكلّل بامتدادات كونية وزمنية لا حدّ لها » .

والنتيجة ذات قيمة كبرى . أنا غير قادر أن أرى كيف نعرف أن نتخلّص منها بالمقابلة مع ما تبقّى من العلم .

في أعماقنا ، دون إمكانية جدال ، تظهر من خلال خرْق ثروةٌ باطنية في قلب الكائنات . وهذا كاف لكي تفرض هذه الثروة ذاتها ، لدرجة أو لأخرى ، كموجود في الطّبيعة أين ما كان ومنذ الأزل . وما لقماشة الكون ، في نقطة منها ، وجه داخلي ، الاّ لأن لها ، بحكم تركيبها ، وجهيْن أي في كلّ منطقة من المكان والزّمان في صغير مخلوقاتها كما في كبيرها . فللكائنات داخل يعايش خارجها .

٩

لنتمرّن على هذه الحقيقة الأساسية حتى الإرتواء ، الى أن تُصبح بالنسبة الينا مألوفة منّا كالنظر إلى النّائي أو كقراءة الكلمات . الله ، من حيث هو اكثر حياة وتجسداً ، ليس ببعيد عنّا ولا خارج الكرّة المحسوسة . ولكنه ينتظرنا ، كل برهة ، في العمل وفي عمل كل هنيهة . إنّه ، نوعاً ، في طرف قلمي وازميلي وريشتي وإبرتي —، قلبي وفكري . اذا ما سرت ، حتى الكمال ،

بالخطّ ، والضّربة ، والنقطة التي تشغلني ، أدرك عندها الغاية القصوى التي اليها تصبو إرادتي العميقة . وكما ان الانسان يتوصّل أن يهذّب القوى الطبيعية المرعية حتى يجعلها تأتي بعجائب اللطافة ، هكذا تعمل قوة الجاذبيـة الالهية العظيمة في رغباتنا الضعيفة ، وموضوعاتنا الدقيقة ، دون أن تحطم منها الرأس . إنها تحيي بغزارة : لهذا تدخل ، في حياتنا الروحية ، مبدأ وحدة سامياً ؛ عمله المميّز هو ، حسب النظرة التي نتبنّى ، أن يقدّس الجهد الإنساني أو أن يؤنسن الحياة المسيحية .

١٠

نعم يا الهي ، إني أومن بهذا : وسأومن به اكثرّ طوعية لأن المسألة لا تتعلّق فقط بتطييب خاطري ولكن باكمالي : أنت أنت في بدء الزخم وفي آخر الجاذبية التي ، مدى حياتي كلها ، لا أعمل إلاّ أن أتبع أو أسهّل حفزها الأول وتوسيعاتها . وهذا انت ايضاً الذي تحيي لي ، بحضورك الشامل (احسن ممّا يحيي فكري المادّة التي يروحن) الألوف المؤلّفة من التأثيرات ، التي أنا موضوعها في كلّ برهة . — في الحياة التي تتفجّر فيّ ، وفي هذه المادّة التي تحملني ، أجد اكثر من عطاياك : ألقاك انت ، الذي تشركني بكيانك وتعركني . في الحقيقة إني ألمس ، في تنظيم وتكييف قوتي الحياتية الأولى ، — في تفاعل العلل الثانوية الدائم والمناسب ، وجهيْ عملك الخالق ؛ إني ألقي يديك العجيبتين وأقبلها : اليد

التي تقبض في الأعماق حتى تختلط فينا مع ينابيع الحياة ، واليد التي تضمّ واسعاً ، حتى إنه ، تحت الخفيف من ضمّاتها ، تلتوي لوالب الكون دفعة واحدة وبانسجام . هذه الانفعالات السعيدة التي هي بالنسبة الي ارادة الكينونة ، ذوق الكينونة بشكل أو باخر ، والانتهازية كي أتحقّق كما أريد ، إنها في طبيعتها باللذات مثقلة بتأثيرك — تأثير سيظهر لي بجلاء فيما بعد كالقوّة المنظّمة للجسد السرّي . كي أشترك معك بها اشتراكاً ينبوعياً (المناولة من ينابيع الحياة) ليس لي الآ أن أعرفك فيها وأن أطلب منك أن تكون فيها أكثر وأكثر .

١١

لا يفقه الصوفي الآّ ببطء القوة التي أعطيها كي يلحظ بزخم أقوى أطراف الاشياء العادية واللامحدودة، من ان يلحظ نواتها الفرديّة والدقيقة .

وقد اعتبر ذاته شبيهاً بالناس الآخرين ، فتّش طويلاً كي يرى ما يروْن وأن يتكلم لغتهم ، وان يرضى بالأفراح التي تفرحهم.

كي يُهدئ حاجة كمال يمتلكه بنفوذه ، فتّش طويلاً أن يحوّله نحو موضوعٍ ما ثابت بقوّة او ثمين ، به يتعلّق ، من بين اللذات العابرة ، جوهر لذته وملؤها .

سأل طويلاً عجائب الفنّ عن التبجيل الذي يوصل الى

حدوده، حدود اللاشخصي والفوق ـ الشعوري ويحاول أن يحيي، في كلمة الطبيعة المجهول، الحقيقة السامية التي تدعوه باسمه...

طوبى للذي لم ينجح أن يخفي رؤياه...

طوبى للذي لم يخف أن يسأل بشغف عن ربّه ربّات الشعر و «سيبل» Cybèle ...

لكن طوبى خاصة للذي، وقد تعدّى هواية الفنّ، ومادية طبقات الحياة السفلى، سمع الكائنات تجيبه واحدة واحدة وسوية: «ما رأيتَ قد مرّ كعالم، وراء الغناء واللون، والأعين ليس هنا وهناك: انه لوجود منتشر في كل مكان. ـــ حضور مبهم ايضاً بنظرك الضعيف؛ ولكنّه تقدّمي وعميق، فيه يصبو أن يذوب كلّ تنوع وكلّ دنس».

١٢

للانسانية المسيحية ـــ وهي أمينة في ذلك لأصفى علم لاهوتي للتجسّد ـــ لا يوجد استقلال حالي ولا اختلاف، إنما ائتمار يتسق، بين تكوين البشرية في العالم وتكوين المسيح، بكنيسته، في الانسانيّة. لا محالة أن التطورين مرتبطان ارتباطاً نظامياً. الواحد (أي الثاني) يتطلّب الآخر كمادة يقيم عليها ليحييها. من هذه الناحية، إن التركيز التطوّري والاختباري للفكر الإنساني في ضمير دوماً متيقّظ لأقداره الوحدوية، لمحترم كامل الاحترام.

ولكن عوض مركز غامض يتجمّع فيه في نهاية المطاف تيّار النشوء، تبدو وتتمركز حقيقة الكلمة المتجسد الشخصية والمحدّدة، فيها تثبت الكائنات كلّها .

الحياة هي للانسان . الانسان هو للمسيح . والمسيح هو لله .

ولتأمين اتصال نفسيّ لكلّ مراحل هذا التطوّر الواسع الممتدّ على ألوف العناصر المنتشرة في سحاقة الأزمان ، نظام واحد وهو التهذيب .

كل الخطوط تلتقي وتكتمل وتتشابك . كل شيء أصبح واحداً .

١٣

مما لا شكّ فيه أن الطاقة المادّية والطاقة الروحية ترتبطان بشيء ما وتمتدّان . في الحقيقة ، نوعاً ما ، يجب الاّ يكون الاّ طاقة واحدة تعمل في العالم . إن أول فكرة تخطر على البال هو أن تتمثل النفس كمركز استحالة حيث تتّجه قدرة الأجساد الى الباطن في كلّ دروب الطبيعة ، وتسمو في الجمال والحق .

ولكن ما أن خطرت فكرة التطوّر المباشر المغوية هذه للطاقتين الواحدة في الأخرى الاّ وجب التخلّي عنها . لأنه ما أن نحاول أن نزاوجها حتى يبدو استقلالها المتبادل كاتّحادهما وبجلاء.

نقول مرّة أخرى «لنفكّر يجب أن نأكل»، ولكن بدل فكرة كم من الافكار المختلفة لقطعة الخبز الواحدة! كما انه من أحرف

الهجاء يمكن أن يخرج عدم الانسجام أو قصيدة لم يسمع بها قط ، كذلك ذات الطاقات الحرارية تبدو ضرورية او لا للقيم الروحية التي تغذي ...

١٤

ما عساه يكون مصير نفوسنا ، يا إلهي ، لو لم يكن لها خبز الموضوعات الأرضية ليغذيها ، خمر الجهالات المخلوقة ليسكرها ، تمرين المصارعات الإنسانية ليقوّيها ؟ أية طاقات هزيلة ، وقلوب ناشفة تحمل اليك خلائقك ، لو تسنّى لها ان تنقطع قبل الأوان عن احشاء عنايتك الذي وضعتها فيه . اشرح لنا كيف يمكننا ، يا رب ، ان ننظر الى ابي الهول دون أن يغوينـــا . اسمعنا السرّ الخفي ، هنا ايضاً ، في أحشاء الموت دون تنقية التعليم الإنساني ، إنما بحركة بسيطة واقعية من انغماسك الخلاصي . بقوة تجسدك المؤلم ، أكشف لنا عن قوة المادة الروحية ثم علمنا أن نتمسّك بها بغيرة لك .

١٥

يظهر العالم للمتصوِّف المسيحي ، وكأنه مغمور بنور داخلي يعظّم منه النتوءات والتركيب والأغوار . في ذلك يشبه هذه المواد

الشفّافة التي ينيرها جملة ، شعاع مخبّأ . هذا الضوء ليس تشكيلة سطحية يمكن ضبطه بلذّة إباحية ، ولا البرق العتيق الذي يُبيد الأشياء ويعمي النظر . إنّما هو الاشعاع المادئ القوي المنبثق من اتحاد عناصر العالم كلّها بيسوع . على قدر ما تكمل هذه الكائنات حيث يعمل ، على قدر ذلك يظهر هذا الاشعاع قريباً وحسياً ، وعلى قدر ما يُصبح حسياً ، على قدر ذلك تُصبح الأشياء التي يغمرها متميزة في اطارها ، بعيدة في جوهرها.

١٦

واذا فكرنا قليلاً بكيفية بزوغ هذا الحب الجديد الشامل في قلب بشري طالما حلم به سدًى، ولكن بتخليه هذه المرة عن حدود الخيال كي يثبت ذاته ممكناً وضرورياً ،نلحظ هذا : حتى يتوصّل الناس أن يحب بعضُهم بعضاً على الأرض، كل الأرض ، لا يكفي ان يعرفوا ذواتهم، الأولون والآخرون، جواهر ذات الشيء الواحد ، ولكن يجب أن يفقهوا انهم بقوة الشمول صائرون الى هذا الواحد نفسه، دون أن يختلط بعضهم بالبعض الآخر لأنه (وهذا موجود بالحرف الواحد في الانجيل) مـــا من حبّ كامل الاّ بالشخص وفيه .

ما معنى هذا أخيرًا ، الاّ ان شمول الانسانية يفترض ، لكي يتمّ دون خلل ، زيادة عن الأرض التي تنقبض ، زيادة عن

الفكر الانساني الذي ينتظّم ويتكاثف ، عاملاً ثالثاً ايضاً : أُريد بذلك صعود مركز كوني نفساني في أفقنا الداخلي ، صعود قطب ضميري سامي ، تتّجه نحوه كلّ الضمائر الجوهرية للعالم، وفيه تتمكّن أن تحب بعضُها بعضاً : صعود إله .

١٧

في كل برهة يخترق الشيء الكبير المخيف كلّ الشقوق . هذا الشيء الذي نجهد ان ننسى انه هو دوماً هنا ، يفصلنا عنه حاجز بسيط : نار ، طاعون ، عاصفة ، هزّة أرضية ، ثورة القوى الادبية المظلمة ، كل هذا يجرّ في برهة ، دون اعتبار ، ما كنّا بنيناه بتعب وزيّناه بعقلنا وقلبنا .

يا إلهي ، لأنه لا يسمح لي ، بسبب كرامتي الانسانية ، أن أغمض العينين على هذا كحيوان أو كولد — لئلا أدخل في تجربة لعنة الكون والذي صنعه — اسمح لي أن أعبده إذ أراك مخبّأً فيه . الكلمة الكبيرة المحررة ، يا سيّد ، الكلمة التي توحي وتعمل ردّدها لي : « هذا هو جسدي » . في الحقيقة ، الشيء العظيم المظلم ، الخيال ، العاصفة — اذا أردنا هو انت ! « أنا هو لا تخافوا » . كلّ ما يخيفنا في حياتنا . ما أرعبك في البستان ، ليس في الحقيقة سوى أعراض وظواهر السرّ الواحد .

انما فلنؤمن ، وليكن ايماننا قوياً مستميتاً بقدر ما تبدو لنا

الحقيقة اشدّ تهديداً ولا تردّ . اذاك ، رويداً رويداً ، نرى الرعب الشامل يرتاح ، ثم يبسم لنا ويضمّنا بذراعيه اللتين تفوقان اذرع البشر .

لا ليست هي حتمية المادّة الصلبة ولا الأعداد الكبيرة التي تعطي الكون ثباته ، إنما هي ترتيبات الروح المرنة ؛ فالصدفة الفسيحة وعمى العالم الجسيم ليسا سوى وهم للذي يؤمن: «الايمان هو جوهر الأشياء» .

١٨

يا سيّد ، هذا انت الذي بحركة جاذبية حسيّة غير منظورة دخلت الى قلبي لتسكب حياته فيك . حللت فيّ بواسطة جزء صغير من الأشياء وبعدها ، فجأة ، انتشرت امامي كالوجود الشامل ...

توصّل الحدس الصوفي الأساسي الى كشف وحدة تتعدّى الوجود ، منتشرة في فسحة العالم .

في الوسط ، الإلهي والكوني ، حيث لم يرَ اولاً الاّ اختصار المدى او روحنته ، رأى الرائي ، الأمين لضيائه ، شكلَ جوهر سامي ، وصفاتُه تتصوّر شيئاً فشيئاً حيث يجد كلّ شيء قوامه النهائي فيبدأ اذاك أن يقدّر بضبط أفراح الحضرة السريّة ووجوبها التي استسلم اليها .

١٩

اجعل وجهك ، يا الهي ، يشرق عليّ في حياة الآخر . ضوء عينيك المبهر هذا ، المضاء في حقيقة الأشياء ؛ أوقعني على كل عملٍ أتتبّعه ، على كل تعب أتعدّاه . أعطني أن أراك حتى وخاصة في الصميم والكامل والعميق من نفس اخوتي .

العطاء الّذي تطلبه مني لهؤلاء الإخوة — العطاء الوحيد الممكن لقلبي — ليس الحنان المملوء بالعواطف الخاصّة التي تضعها في حياتنا كعامل قويّ مخلوق من نموّنا الداخلي ، إنما هو شيء اقلّ نعومة ولكنه اشدّ حقيقة واقوى . لقد أردت أن تظهر بين الناس وبيني ، بمعونة قربانك ، الجاذبية الأساسية (التي يحسّ بها بصورة خفيّة كلّ حبّ ما أن يقوى) التي تصنع سرياً من الوف الخلائق الناطقة نوعاً من موناده واحدة فيك ، يسوع المسيح .

الانسانية تسير

٢٠

إن العالم يُبنى . هذه هي الحقيقة الأساسية التي يجب فهمها اولاً — وفهمها جيداً حتى تُصبح قوّة عادية وشبه طبيعيـــة لأفكارنا . للوهلة الاولى تكاد تظهر لنا الكائنات ويظهر لنا

مصيرها وكأنها منثورة صدفة أو أقلّه اعتباطياً على سطح الأرض. قليلاً ونفكّر أنه كان يمكن لكل واحد منّا ان يولد مغايراً لما هو عليه، قبل الوقت أو بعده، هنا أو هناك، أكثر سعادة أو أقل ثروة: كما لو ان الكون، من بدء تاريخه الى نهايته، يكوّن في الزمن والمدى قطعة أرض فسيحة تتبدّل أزهارها الواحدة بالاخرى على هوى البستاني وهذه الفكرة غير صحيحة. على قدر ما نفكّر مستعينين بما يلقّمنا العلم والفلسفة والدين، كلّ في طريقته، على قدر ذلك نرى ان العالم يجب ان يُشبّه، لا برزمة من العناصر موضوعة الواحد قربَ الآخر، بل بنظام مرتّب تدفعه حركة واسعة من النموّ خاصّة به. على مدى الأعصر، يظهر حولنا تصميم عامّ في طور التحقيق. في الكون عمل يتحقّق، ونتيجة تُعطى لا يمكننا تشبيهها الاّ بالحبل والولادة: ولادة حقيقة روحيّة صنعتها الأنفس وبما تحمله هذه من المادّة. بعناء تُجمع الارض الجديدة وتظهر وتتطهّر من خلال الجهد الانساني وبواسطته. لا، لسنا شبيهين بزهيرات باقة ولكن باوراق شجرة كبيرة وازهارها، عليها يظهر كلّ واحد بأوانه وفي موضعه حسب قياس الكل وطلبه.

٢١

ايّ محيط واسع هو الألم الانساني مجمل الألم المنتشر في كل برهة على الأرض بكاملها! من اي شيء مصنوع هذا

المجمل؟ من سواد ونقص ونفايات؟... لا ولكن، لنردّد ذلك، انما هو مصنوع من طاقة ممكنة. قوة العالم التصاعديّة مخبأة في العالم وبقوة عظيمة. المسألة كلّها في تحريرها باعطائها ان تعي ما تعني وما تستطيع. آه اية قفزة للعالم نحو الله لو أن المرضى كلّهم وجّهوا آلامهم في رغبة مشتركة، كي يختمر ملكوت الله بسرعة عبر غزو الأرض وتنظيمها. يوحّد كل المتألمين آلامهم حتى يُصبحَ ألم العالم عملَ يقين كبير وفريد، عملَ تصعيد وتوحيد: اليس ذلك شكلٌ من الاشكال الاكثر سمواً التي يمكن لعمل الخلق السرّي ان يتّخذها بنظرنا؟

٢٢

لكي أحسن ضمّك أريد، يا سيدي، ان يُصبح ضميري فسيحاً كالسماوات والأرض والشعوب، عميقاً كالماضي والصحراء والمحيط — دقيقاً كذرّات المادّة وخواطر القلب البشري...

ألا يجب ان اتّحد بك بالكون في كلّ امتداده؟

لئلا ادخل في التجربة التي تترصّد كل جسارة، لئلا أنسى انّه يجب التفتيش عنك وحدك عبر كل شيء — تُرسل لي، يا سيّد، في الساعات التي تعلم، الحرمان وخيبة الأمل والألم. سيغرب موضوع حبّي او اني اتعدّاه.

— الزهرة التي كنت أمسك ذبلت في يديّ...

— انتصب الحائط أمامي في منعطف الممشى ...

— ظهرت الحدود من خلال اشجار الغابة التي كنت اظنّها بلا نهاية ...

— اتت التجربة .

... ولم اكن حزيناً نهائياً ... بل انفجر بالعكس في نفسي فرح ممجَّد، لم يخطر على البال لأنه في افلاس الركائز المباشرة التي حاولتُ ان أعطيها لحياتي ، اختبرتُ بطريقة فريدة أني ما كنت استند الآ الى ثبوتك .

٢٣

ارتقاء الحياة الفائقة الطبيعة في نفسنا (مرتكزة على روحنة العالم الطبيعية بالجهد البشري)، هذا هو اخيراً المجال الذي فيه تعمل قوّة الايمان الفاعلة ايجابياً ودون حدود معلومة .

في الكون الروح — وفي الروح المنطقة الادبية — هي بنوع سامي موضوع ارتقاء الحياة الحالي . اذاً الى هناك ، الى صهارتنا المرنة يجمل ان تحمل قدرة الايمان بقوّة، حيث تختلط النعمة الالهية بدفعات الارض .

هناك بنوع خاص ، تنتظرنا القوّة الخالقة ، وتستعد بنوع أكيد لتحوّلنا الى أبعد ممّا رأت عين بشريّة ، وسمعت به أذن .

من يستطيع ان يقول ما يعمل الله منّا اذا تجاسرنا حسب كلمته فتبعناه حتى آخر نصائحه واستسلمنا لعنايته ...

حبّاً بالخالق والكون ، لنرمِ بذاتنا ، دون وجلٍ في بوتقة العالم المقبل .

وباختصار إننا نرى أن للنجاح المسيحي حسب ما يحصل عليه الايمان المسيحي ثلاث ميزات :

١ ـ يحدث النجاح دون ان يغيّر ايّة حتمية بنوع خاصّ او يُبطلها ـ لأن الأحداث لا تتحوّل عامة بالصلاة عن مجاريها، ولكنها منسجمة في اتحاد جديد للكل .

٢ ـ لا يظهر النجاح حتماً في تصميم التقدم الانساني الطبيعي، انما في نظام التقديس الفائق الطبيعة .

٣ ـ الله هو محرك النجاح الاوّل وينبوعه، ونقطة ارتكاز ارتقائه . بهذا الاختصاص المثلّث الذي يميّزه دون التباس عن الايمان الطبيعي في طريقة عمله، ينجلي الايمان المسيحي قوّةً كونية حقيقية وشاملة .

٢٤

داخل كون ذي تركيب اتجاهي ، تبقى الطريقة الوحيدة الممكنة لعنصر كي يقترب من العناصر المجاورة ان يضيّق المخروطة، اعني ان يعمل على توجيه مساحة العالم كلّه في اتجاه القمّة

حيث هو موجود . انه لمن المستحيل ، في نظام كهذا ، ان نحبّ القريب دون التقرب من الله ، والعكس بالعكس (هذا كنا نعرفه) ، وانه لمن المستحيل ايضاً (وهذا اكثر جدّة) ان نحبّ إمّا الله ، واما القريب دون ان نعمل على تقدم التركيب الارضي للروح في كماله الطبيعي : لأن تقدم هذا التركيب بحصر المعنى هو الذي يسمح لنا ان يتقرب بعضنا من البعض الآخر ، ونحن نصعد الى الله . لاننا نحبّ ، كي نحبّ اكثر نرى ذاتنا اذاً بكل سعادة مجالين أن نشترك ، اشدّ واحسن من اي شخص ، في كل الجهود ، في كل الهموم ، وكل المطامح ، — وايضاً في كل عواطف الأرض — على قدر ما تحوي كل هذه الأشياء ، من مبدأ للارتقاء والتركيب .

في هذا الوضع الرحب ، يبقى التجرد المسيحي كاملاً : ولكنه يجذب بدل أن يُبقى في الوراء ، ويرفع بدل ان يقطع : لا قطع انما اجتياز ، لا هروب انما بروز . — دون ان تبقى هي هي — تنتشر المحبة كقوّة تصاعدية ، كإنيّة مشتركة في قلب كل اشكال الحركات الانسانية — التي تنزع فيما بعد على اختلافها الى ان تنسجم في كلية عمل فريد غنيّ كالمسيح بالذات ، وعلى مثاله ، تعمّ ، وتزخم وبالوقت ذاته تتأنسن .

وباختصار كي تتزاوج مع الانحناءة الجديدة التي اتخذتها مع الزمن ، تجد المسيحية ذاتها مقادة ان تكتشف دون الله قيم العالم ، بينما البشرية مقادة ان تكتشف فوق العالم مكان الله .

٢٥

الفرح هو بنوع خاص ان يلتقي الانسان اخيراً موضوعاً عاماً وثابتاً يُعيد اليه ، ويعلّق به السعادات المجزّأة التي يهيّج القلب اقتناؤهـــا المتتابع والهارب دون ان تشبعه . يتألّم الصوفي من تفتّت الكائنات اكثر من اي شخص آخر ، فيفتش بلديهياً وبعناد عن الثابت واللامتغير والمطلق .

ان التجزؤ في كل مكان هو علامة الفساد وعدم الثبات. انما وفي كل مكان اثر ركيزة وحيدة وحنينها ، ونفس مطلقة ، وحقيقة مركّبة تكون ثابتة وشاملة كالمادّة ، بسيطة الروح .

يجب أن يحسّ الانسان عميقاً الم الانغماس في الكثرة التي تحوم وتهرب من تحت الأصابع ، كي يستحقّ ان يذوق الحماس الذي يرفع النفس ، عندما ، تحت عمل الحضور الشامل ، ترى ان الواقع قد اصبح ليس فقط شفّافاً ، انما ثابتاً . ان مبدأ الكون غير الفاسد هو من الآن وصاعداً موجود وقد انتشر في كل مكان. العالم مملوء ومملوء من المطلق . يا له من تحرّر .

٢٦

« أقم معنا يا سيد فان المساء مقبل » .

لنستول على ظلّ العمر ونستعمله : ضعف ، عزلة ، مـّا مِنْ أفُقٍ الى الأمام ...

لنجد في المسيح الياء ، طريق البقاء فتىً « فرحاً ، وحمساً ، ومقداماً) .

لا نخلط مع الحكمة كل ما يمكن ان يكون حزناً ولا مبالاة ، وتبدّد اوهام . لنفسح مكاناً ومكاناً عالياً ، للنهاية التي تقترب ، وللزوال (ضمن الحدود التي يريدها الله) .

« كن مستعداً » لم يبدُ لي انها تعني شيئاً مغايراً . لـ « كن منجذباً الى الأمام ... »

ليحفظني يسوع الياء فتى (لمجد الله الأعظم) — (فتوّة مقتبسة من المسيح الياء : احسن « المبرّرات » !) .

١ — لأن العمر والشيخوخة منه .

٢ — لأن العمر والشيخوخة يقودان اليه .

٣ — لان العمر والشيخوخة لا يمساني الاّ بقدر ما يريدهما لي.

« فتى » : متفائل ونشيط وضاحك وبصير . اقبل الموت كما يأتيني بالمسيح الياء اعني تطويرياً ... ابتسام (داخلي وخارجي) وعذوبة امام كل الذي يحدث .

يا يسوع الياء اسمح لي ان اخدمك ، واعلنك ، واشجدك ، واظهرك حتى النهاية — ، بالوقت الذي يبقى لي ان اعيش وخاصة بنهايتي !...

يا يسوع ، اني أكل اليك بقوة لا تعلوها قوة موتي وسنيّ الأخيرة النشيطة . لا تسمح ان تأتي فتضعف ما حلمت ان أكمل لأجلك ...

هي نعمة ان ننتهي جيداً ، بالطريقة الأصلح لنفوذ المسيح الياء ! ... انها نعمة النعم .

وجود مسيطر عليه الوجد الوحيد، ان يتقدم انسجام المسيح والكون . اذاً، حبّ الإثنين (بنوع اخصّ حب المسيح والكنيسة محور مطلق) ...

الاتحاد بالموت (الموت ــ الاتحاد) ...

ما يأتي أخيراً : هو المعبود .

اني ذاهب الى لقاء الذي يأتي .

٢٧

يبين الى عدد من الناس، انه لا يمكن لسموّ الروح ان يكون سليماً، ما لم يرافق ظهوره الاوّل توقّف ما للعالم في سيره العادي. وعلى الأصحّ يحسن القول، بما أنّه روح وجب ان يتخذ ظهوره هيئة تكليل او انفتاح . لكن لندع جانباً كل اعتبار نظامي . ألا يخلق ، في كل نهار ، عددٌ من النفوس البشرية في صيرورة التكوين، ولا تتمكن اية ملاحظة علمية ان تلحظ اقلّ انفصال في تسلسل الأحداث الحياتية ؟ ولنا مثال على ذلك ، في كل يوم وتحت أعيننا ، خلق غير منظور ولا ملموس للعلم الصرف . لماذا تراكم صعوبات عندما يتعلّق الأمر بالانسان الاوّل ؟ حتماً، انّه لأصعبُ علينا أن نتمثّل ظهور « التفكير » على طول

سلسلة التطوّرات المؤلّفة من افراد متميزين ، من ان نتصوّره على طول سلسلة أحوال يجتازها ذات الجنين . إنما إذا اعتبرنا العمل الخلاق من جهة اتصالاته مع الظواهر ، فحدث التكوين هو حدث التخصّص التسلسلي ذاته . لماذا لا نقبل مثلاً أن يكون العمل الحرّ والخاص الذي به أراد الخالق أن تكلّل البشرية عمله، قد أثّر بسير العالم ونظّمه قبل الانسان، فيظهر لنا هذا الآن (نتيجة لانتقاء الخالق) كالثمرة المنتظرة طبيعياً لتطوّرات الحياة ؟ «كل شيء من أجل الإنسان» .

٢٨

نعم ، في شجرة الحياة ، تشكل الحيوانات اللّبونة فرعاً رئيسياً ، الفرع الرئيسي . امّا المقدّمات (Primates) ، أعني من الحيوانات ما اتّصف بالدّماغ والعمل اليدوي ، فهي رأس هذا الفرع ومـــا يقرب من البشريّات ، فيؤلف البرعم نفسه الذي ينهي خطّ مسير التطوّر .

وبعدها نزيد، على انه لسهل أن نقرر أين يجب أن تتوقّف عيوننا على الكرة الحيّة في انتظار الذي يجب أن يحدث . في ايّ مكان غدونا، نعلم أن الخطوط التسلسلية العاملة تتحرّك بالضمير في قمّتها . ولكنها تحمرّ في منطقة محدّدة في قلب اللبونة، حيث تتكوّن أقوى دفعة لا يمكن ابداً أن تركبها الطبيعة . وأيضاً

تلمع في قلب هذه المنطقة نقطة توهُّج .

لا نحوّل نظرنا من خطّ الفجر الأرجواني هذا .

فبعد الوف السّنوات التي تعبر تحت الأفق، ستلمع شعلة في نقطة جدّ محدّدة .

هنا يولد الفكر !

٢٩

يصبح الكائن المفكّر فجأة قابلاً أن يتطوّر في جوّ جديد، بقوّة انعطافه على ذاته . في الحقيقة ، هذا عالم جديد يولد . تجريد ، منطق ، إختبار واختراع معقول ، رياضيات ، فنّ ، ادراك مُحصىً للمسافة والديمومة ، قلق الحبّ وأحلامه ... كلّ فاعليّات الحياة الدّاخليّة هذه، ليست سوى فوران المركز الجديد ، منفجر على ذاته .

على هذا أتساءل : أنستطيع الشكّ حقيقة ، كما يستنتج ممّا سبق ، في أن العقل هو الميزة التطويرية للانسان وحده، اذا ماهية العاقل وكنهه ان يكون مفكراً ؟ وهل يمكننا فيما بعد أن نتردّد بالاعتراف ، لا اعلم ، بايّ تواضع مغلوط ، أن امتلاكه لا يشكّل للانسان تقدّماً جذرياً على كلّ الحياة من قبله ؟ الحيوان يعلم، وهذا متفق عليه . ولكن الشيء الثابت أنّه لا يعلم أنه يعلم : والاّ لكان من زمن بعيد اكثر الاختراعات، وطوّر النظام تركيبات

داخلية لا تغيب عن عيننا . وفي النتيجة ، إن مجالاً من الواقع لا يزال مغلقاً أمامه فيه نتحرك نحن ، وهو لا يفقه أن يلج اليه . هوة ، أو عتبة ، تفصلنا لا يمكنه اجتيازها . بالنسبة اليه ، لأننا عقلانيون ، لسنا مغايرين له فقط ولكن نحن آخرون . فليست المغايرة في الرتبة ، وإنما هي في الطبيعة نتيجة تغيّر حال .

وها نحن بالضبط وجهاً لوجه أمام ما كنّا ننتظره . الحياة لأنها صورة الضمير ، ما كان باستطاعتها أن تكمل ، فتتقدم الى ما لا نهاية له في حظها ، دون أن تتطوّر في العمق . كنّا قد قلنا إنه كان يجب ، مثل كلّ مقياس متطوّر في العالم ، أن تبدو مغايرة لتبقى ذاتها .

٣٠

يا إلهي ، كان عذباً لي ، في قلب الجهد ، أن أشعر أنّي بتطوري الذاتي كنت احملك على امتلاكي بنوع اشمل . كان عذباً علي حتّى تحت الدفعة الداخلية للحياة أو وسط لعب الأحداث المؤاتي ، أن استسلم لعنايتك . اسمح ، بعد ان اكتشف فرح استخدام كلّ تطوّر ، أن أحملك أو أتركك تكبر فيّ . إسمح أن أتوصل دون خوف للمرحلة الأخيرة من الإتحاد وفيها امتلكك بانتقاصي فيك .

بعدما أبصرتك كالذي هو « أزود من ذاتي » إسمح ، وقد

أتت ساعتي ، أن أعرفك تحت اشكال كلّ قوة ، غريبة أو عدوّة ، يظهر أنها تريد أن تحطّمني أو تأخذ مكاني . عندما يبدأ العمر يعمل عمله بجسدي (وبنوع اكثر بروحي) ؛ عندما ينقضّ عليّ من الخارج ، أو يولد فيَّ من الداخل ، الشرّ الذي ينقص أو يُسلب ، في الدقيقة المؤلمة التي أعي بها توّاً أني مريض أو أصبح هرماً ، في اللحظة الأخيرة ، خاصّة ، حيث أشعر أني أفلت من ذاتي دون حراك البتة تحت سيطرة القوى الكبيرة المجهولة التي صنعتني : في كلّ تلك الساعات المظلمة أعطني ، يا إلهي ، أن أفهم أنك انت (شرط أن يكون إيماني قوياً) الذي تبعد بألم ألياف كياني، كي ألجَ حتى الصميم من جوهري ، كي تحملني فيك .

نعم على قدر مـــا هو الشرّ مسمّر ومزمن في القعر من جسدي ، على قــدر ذلك يمكن أني آويك كمبدأ محب ، عامل للتطهير والتنزيه . وعلى قدر ما يَنْفَتِحُ المستقبل أمامي كشقّ مرنّح أو كممرّ مُظلم ، على قدر ذلك ، إذا غامرت فيه واثقاً من كلامك ، لي الرجاء أني أضيع أو أغرق فيك — أن اتوحّد بجسدك ، يا يسوع .

يا قوّة سيدي ، يا قوة حيّة لا تقهر ، لأنك ، من كلينْا ، الأقوى الى ما لا حدّ له ، اليك يعود أمر إحراقي في الوحدة التي يجب أن تصهرنا معاً . أعطني اذاً شيئاً أثمن من النعمة التي لأجلها يصلّي لك كلّ مؤمنيك . لاكفاية لي أن أموت وأن اتّحد . علّمني ان اتّحد وأنا أموت .

على قماشة كونيّة منفعلة بالكليّة وبالأحرى مقاومة ، لا يعلم اي تركيب تطويري أن يجد سبيلاً . عندئذ من لا يرى المأساة الممكنة لإنسانية فقدت فجأة تذوّق غايتها ؟ هذه المرارة تصبح معتدلة أو بالأحرى لا مفرّ منها إذاً ، بتفكير متطوّر ، كنّا نتوصّل أن نكتشف أنه ، في عالم محكم الإطباق ، محتم علينا يوماً أن ننتهي في موت جماعي كامل . تحت تأثير هذا الاستنتاج المخيف ، أليس بواضح أنه بالرغم من جذب قاس لسلسلة الإنطواء الكوكبي ، سيتوقّف التركيب النفسيّ للتطوّر حالاً شديد الامتداد منحلاً في جوهره نفسه ؟

على قدر ما نفكر بهذه الإستطراقية التي تبرهن بعض دلائلها المَرَضية ، كالوجودية السرترتية ، على أنها ليست أسطورة ، على قدر ذلك نبتدي ونفكّر أن اللغز الكبير الذي يعرضه على عقلنا الظاهر البشري ليس أن نعلم كيف اشتعلت الحياة على الأرض ، من أن نعلم كيف تستطيع أن تنطفئ عليها ، دون ان تمتدّ في أية ناحية أخرى. وعندما تُصبح معقولة، لا يمكن فعلاً أن تقبل بالاختفاء كلياً دون أن تناقض ذاتها حياتياً .

وبالنتيجة يقلّ استعدادنا لأن نرفض كغير علميّة الفكرة القائلة، بانّ النقطـــة الحسّاسة للتفكير الشامل ، ثمرة التطوّر الجماعي ، بدل أن تكون مجرد شهاب في الليل المظلم ، تتناسب بالعكس ومرورنا ، بتوبة او بانحتاق من المادّة ، على صعيد

جديد من الكون : لا بنهاية ما يفوق الإنسانية ولكن ببلوغ الإنسانية ما يتجاوز حدودها في قلب الكائنات نفسها .

٣٢

من يرى الكون بشكل ارتقاء شاقّ نحو الضمير الأكبر ، تبدو له الحياة غاشمة وقاسية أو محتقرة ، ولكن تثقلها رجاحة مسؤوليات ورباطات جديدة . كما كتبَ بحق ، من زمن غير طويل ، Olivier Lodge « تغدو النظرية التطويرية مدرسة رجاء، اذا ما فهمت جيّداً » . لنزد مدرسةَ محبة متبادلة أكبر ، وجهد أسمى .

حتى إنه يمكننا أن نسند، على طول الخطّ، وبدون أيّ تناقض ، النظريّة التالية (احسن ما أعطي ، بلا شك ، لتطمئن النفوس وتقودَها في تقدّم النّظريات التطويرية) : ان التطور لا يفتح الطرق حتماً كي يغزو الروح المادّة : إنه يشهد بالأحرى لنصر للروح جوهري . كالثبات ، اذا لم يكن أحسن منه ، ليتمكّن التطوّر ان يُعطي الكون العظمة والعمق والوحدة التي هي المناخ الطبيعي للايمان المسيحي .

والفكرة الأخيرة هذه، توصلنا إلى أن نستنتج بالملاحظة العامة التالية :

أخيراً علينا نحن المسيحيين، مهما قلنا سواء في موضوع التطوّر

أو في موضوع آخر من النظريات الجديدة التي تجتذب الفكر المعاصر، ألاّ نحمل الآخرين أبداً أن يفكروا أننا خائفون من كلّ ما بامكانه أن يجدّد أفكارنا ويعظّمها في الانسان والكون، إذ بدون هذا لا يصبح العالم فسيحاً كغاية، ولا البشرية قويّة، حتى يغدوان جديرين بالذي خلقها وتأنّس فيهما.

٣٣

هل الحياة طريق أو مأزق؟ هذا هو السؤال الذي ما كان يُطرح من بضعة عصور حتى تطرحه الآن شفاه البشريّة بكلّيتها. على أثر الأزمة، القاسية القصيرة، اصبحت البشرية متطلّبة، وبحقّ، اذ تيقّنت في آن واحد من قوّتها الخلاقة ومن قواها الناقدة. وأي منخس من بين غرائزها وحاجاتها الاقتصادية الغاشمة غدا غير جدير الى وقت بعيد أن يطوّرها. سبب واحد، سبب حقيقي ومهمّ، أن نحب الحياة بشغف، يحملها ان تقرّر على المضي قدماً. ولكن اين نجد، على الصعيد الاختباري، بدء (او اتمام) تبرير الحياة؟ ولا في مكان آخر كما يظهر، الاّ في اعتبار القيمة الداخلية للظاهر الانساني. لنكمل اعتبار الانسان كزيادة عرضية أو كألعوبـــة وسط الكائنات: فتحمله على القرف والثورة اللذين اذا ما تعمّما، دلاّ على اخفاق الحياة النهائي على الأرض. وبالعكس لنعترف أنه في مجال اختبارنا، يملك الانسان بين يديه ثروة الكون، لأنه

المقدّمة السائرة لإحدى اثنتين من الموجات الأشد وسعاً، التي فيها ينقسم بالنسبة الينا الواقع الملموس؛ وهكذا نصوّبه نحو شمس كبيرة طالعة.

إنّه لمن حقّ الإنسان أن يقلق على ذاته، طالما يشعر أنه هالك، منعزل في مجمل الكائنات. ولكن عليه أن يسير قدماً وبفرح ما أن يكتشف أن مصيره مشدود الى مصير الطبيعة نفسها: لأنه لا يصبح هذا له فضيلة حسّاسة، انما مرض روحي وهو أن يرتاب في قيمة العالم وآماله.

٣٤

إنه ليس من السهل على المتشائم أن يحذُف هذه الحقبة الغريبة من المدنيّات التي دالت الواحدة بعد الأخرى. ألا نقترب أكثر من العلم أن نرى مجدداً، تحت هذه الاهتزازات المتتابعة، لولب الحياة الكبير صاعداً دون رجعة على مراحل، متتبعاً خطّ تطوّرها الرئيسي؟ سوز، ممفيس، اثينا يمكن ان تموت. إن ضميراً للكون اشدّ تنظيماً يمرّ من يد الى يد، وبهاؤه في ازدياد.

وعندما اتكلّم بعد ذلك على الشمول الذي سيحصل للكرة العاقلة، أرغب أن أرد لأجزاء البشريّة الأخرى الحصّة، الكبيرة والجوهرية، المحفوظة لهم في ملء الأرض المنتظر. في هذه النقطة من بحثنا، يجب تعطيل أعمال العاطفة لئلا نقول إنه على مدى

الأوقات التاريخية قد مرّ بالغرب المحور الأساسي للتكوين الإنساني. في هذه المنطقة الحارّة من النمو والانصهار الشامل، وُجد كل ما يعمل الانسان اليوم أو وجب أن يوجد. لأنه حتى الذي كان معروفاً هناك منذ زمن بعيد، لم يأخذ قيمة انسانية نهائية الاّ بانخراطه في نظام الأفكار والاعمال الأوروبية. ليس من السّذاجة أن يُحتفل باكتشاف كولمبس لاميركا كحدث هام...

في الحقيقة، إن انسانية جديدة (نيو — إنسانية) قد ولدت حول البحر المتوسط منذ ستة آلاف سنة التي ما برحت، حتى في هذه البرهة، تبتلع آخر آثار فسيفساء العهد الحجري: برعمة مساحة جديدة، الأشدّ حبكاً من الكلّ على الكرة العاقلة.

والبرهان على ذلك أنه لا محالة لكلّ الشعوب، من طرف العالم الى طرفه الآخر، كي تظلّ أو تصبح اكثر إنسانية، من ان تطرح السؤال بالكلمات عينها التي توصّل الغرب بها الى ان يتساءل عن آمال ومشاكل العالم العصرية.

٣٥

فلنتعرّف أخيراً إلى ما يلي بصراحة. إن ما يقلّل في هذا الوقت عينه في نظر البشر الايمان بالتقدّم انما هو، علاوة على تردّده وعجزه أمام «أيّام الجنس الأخيرة»، النزعة المشؤومة التي

يظهرها أتباعه في أن يشوّه تشويه المعتقدات الألفية الحقيرة ما في انتظارنا الواعي من شرعي ونبيل يتجاوز الحدود البشريّة. ونفهم أن التطوّر يُخبّئ لنا زمناً من البحبوحة والرفاهية — عصراً ذهبياً — ومن العدل أن يضعف قلبنا أمام مثال برجوازي أعلى. بعكس هذه المادّية وهذه الطبيعة الوثنيّة حقاً، أصبح من الضروري أن نذكر، مرة أخرى، أنه إذا افترضت قوانين التكوين الحياتي وحلت عملياً، بطبيعتها، تقدّم ظروف البشريّة الإقتصادية، فليست هذه مسألة بحبوحة، إنما هذا عطش لكينونة أكبر، هي الوحيدة القادرة، بضرورة نفسية، أن تخلّص الأرض المفكّرة من سأم الحياة.

وهنا تظهر، في أقوى بهائها أهميّة الفكرة المدرجة أعلاه، وهي أن البشريّة تجد اعتدالها حياتياً، لا في أساس نظامها المادّي (التركيب السفلي)، بل في قمّة تركّزها الروحي (التركيب العلوي).

لأنه إذا ما قبل، في هذا الاتجاه، وجود نقطة حسّاسة من التنويع بعد استعمال التكنيكية والمدنيّات، فما ذلك (مع حفظ أولية التوتر على الراحة في التكوين الحياتي، وذلك حتى النهاية)، سوى منفذ ينفتح أخيراً على قمّة الزّمن: لا لآمالنا في الهرب فحسب بل لانتظار روحي، ايضاً.

هذا الّذي كان قديراً أن يُزيل الخلاف بين النّور والظلمة، بين الفرح والغمّ، حيث وُجدنا مأخوذين على أثر تجدّد معنى الجنس فينا.

اخفضي جناحيك، يا نفسي، اللذين فتحت واسعين لتبلغي القمم الأرضية حيث النور أشدّ حرارة. وانتظري هبوط النار اذا كانت تريد ان تكوني لها.

لتجذبي قوّتها، أرْخي اولاً العواطف التي تشدّك ايضاً إلى أشياء عزيزة على ذاتها. ان الوحدة الحقيقية الواجب عليك اتباعها مع الخلائق التي تجتذبك لا تتحقّق بذهابك توًا اليها، ولكن اذا اتجهت معها صوب الله، الذي تفتشين عنه من خلالها. إن الأشياء تتقارب وتتوصّل كلّها ومعاً أن تُصبح واحداً في ميلها الذي لا يقهر، لا في صيرورتها الى مادة في احتكاك جسدي، بل في تروحنها بالله. اذاً كوني عفيفة يا نفسي.

وعندما تتوصّلين أن تخفّفي كيانك، حلّي، بعيداً ايضاً، رباطات جوهرك. انك لشبيهة، في حبك الجامح الذي تحملين، بذرة مغلقة على ذاتها، ولا تدري أن تدخل بسهولة في أي تركيب جديد. إنّ الله ينتظر منك اكثر انفتاحاً واكثر طوعية. لتعبري اليه، انت بحاجة أن تكوني اكثر حرية واكثر اهتزازاً. تخلّي اذاً عن أنانيتك وعن خوفك من الألم. حبّي الآخرين كنفسك، أعني ادخليهم في ذاتك كلّهم، حتى الذين لا ترغبين فيهم، كما لو كنت وثنية. اقبلي الألم. احملي صليبك، يا نفسي.

٣٧

اننا ننسى بلا انقطاع أن المافوق الطبيعة خميرة ، نفس وليس بتركيب كامل . إنه آت ليُنير الطبيعة ولكنّه ليس بغني عن المادّة التي تقدّمها له . إذاً كان العبرانيون قد بقوا مدة ثلاثة آلاف سنة متّجهين نحو المسيح ، هذا لأنه كان يظهر لهم ، وَهالتُه مجدُ شعبهم . اذا كان تلاميذ بولس عاشوا ناهجين دوماً نحو اليوم العظيم ، فما ذلك الاّ لأنهم كانوا ينتظرون من ابن الانسان الحلّ الشخصي والحسّي لمشاكل الحياة وظلاماتها. إن انتظار السماء لا يدوم الاّ إذا كان متجسّداً . أيّ جسد سنعطي لانتظارنا اليوم؟ جسد رجاء فسيح إنساني بكامله .

٣٨

أنت يا من بحكمتك المُحبّة تصنعني من كلّ قوى الأرض وصدفها، أعطني أن أبدأ حركة تبدو لي فعاليّتها الكاملة بوجه قوات الموت والنقصان . إجعلني بعد أن اشتهيت أن أؤمن بحرارة، أن أؤمن بحضورك العامل على كلّ شيء .

بفضل منك امتلأ هذا الايمان وهذا الانتظار بقوّة فاعلة . ولكن كيف أعمل لأشهد لك ، وأبرهن لذاتي بجهد خارجي أني لست من أولئك الذين يتمتمون من الشفاه فقط : « يا ربّ، يا ربّ» . سأعاونك في عملك السبّاق وأُضاعف همّتي . على الهامك العميق ،

أولاً ، الذي يأمرني أن اكون ، سأجاوب حذراً من أن أختنق ابداً ، أو أحرّف ، أو أبذّر قوّة الحبّ والمعرفة التي فيّ . وعلى عنايتك التي تجلبني بعدئذ ، التي تدلني في كل برهة ، بأحداث النهار ، إلى الخطوة التالية التي عليّ أن أخطو والدرجة التي عليّ أن أرتقي ، سأتعلّق بأن أهتمّ ألاّ اضيّع ولا فرصة مناسبة كي أسمو نحو « الروح » .

٣٩

لماذا إذاً ، يا قليلي الايمان ، الخوف الحرد من تطوّر العالم؟ لماذا تعداد النبوءات والنواهي بدون تبصّر : « لا تذهب ... لا تحاول ... كل شيء معلوم » : الأرض هرمة فارغة فما لنا بعد أن نجد شيئاً ... »

نحاول كل شيء لأجل المسيح ! نأمل كل شيء لأجل المسيح . لا شيء الاّ ونفكّر به . هاكم بالعكس الإتجاه المسيحي الحقّ . ليس التأله هدماً بل خلقاً سامياً . إننا أغبياء بعد عمّا ينتظر التجسّد من قوات العالم . إننا لا نرجو كفاية بعد وحدة الانسانية الصاعدة .

٤٠

ما يستهويني في الحياة هو القدرة على المساهمة بعمل، بحقيقة اكثر ثباتاً منّي. بهذه الروح وهذه النظرة أحاول أن أكمّل ذاتي، وأن أسود أكثر على الأشياء. واذا ما أتى الموت ومسّني يترك هذه الأشياء، وهذه الأفكار، وهذه الحقائق أكثر صلابة واكثر قيمة مني؛ من جهة أخرى، إن الايمان بالعناية يحملني على الايمان بأن هذا الموت يأتي في ساعته، مع خصبه السرّي والخاصّ (ليس لغاية النفس الفائقة الطبيعة، إنما ايضاً لتطوّر الأرض التالي). اذاً لماذا الخوف والحزن إذا كان الجوهري في حياتي لم يمسّ — اذا تطاول الرسم ذاته دون قطع ولا انقطاع مهلك؟... ليس لحقائق الايمان الثبات المحسوس ذاته كثبات الاختبار. اذاً مما لا مناص منه، وبفضل العناية، عندما يجب ترك البعض للبعض الآخر، تحدث الروعة والدوار، ولكن هذه هي البرهة كي تنتصر العبادة والثّقة، وينتصرَ السرور لأني جزء من كلّ اكبر مني.

٤١

اننا نتابع، في وداعة الخوف وفي حث الخطر، كمال عنصر لا يتمكّن الجسد السرّي أن يحصل عليه الآ منّا. إن سلامنا

يتضاعف بمجد المغامرة في إبداع عمل أبدي لا يوجد بدوننا.
إن ثقتنا بالله تتحرّك وتقسو بالعناد الإنساني لغزو الأرض.

٤٢

يُدهشنا أن نرى في باقة زهرات ناقصة هزيلة، لأن عناصرها قد قطفت واحدة واحدة وجمعت بطريقة إصطناعية. وبالعكس، يُدهشنا أن نرى الأغصان المكسورة والاوراق الممزّقة، والأزهار اليابسة أو النحيفة أو الذابلة في أمكنتها على شجرة قاومت عوارض نموّها الداخلية وتغيّرات الطقس الخارجية. إنها تعبّر عن أحوال النموّ الصعبة التي يلاقيها الجذع الذي يحملها.

وهكذا في عالم حيث تشكل كل خليقة كلاً صغيراً مغلقاً، يكفي نفسه، ويمكن نقله، نظرياً حسب المراد، يصعب علينا أن نبرّر، في عقلنـــا، وجود أشخاص تتألم لعدم التوسّع بامكانياتها وتطويرها. لماذا عدم التّساوي المجاني وهذه الشروط المقيّدة المجانية؟...

عوضاً عن هذا، إذا كان العالم حقيقةً يمثّل عملية غزو حالية — إذا كنّا حقيقة نُرمى في صميم المعمعة باتلادنا — نستشفّ أنه لا بدّ من التّعب لأجل نجاح الجهد العام الذي نحن من المساهمين فيه والّذي نحن رهانه؛ اذا ما نظرنا اختيارياً إلى العالم من خلال قياسنا ألفناه تحسّساً واسعاً وتفتيشاً واسعاً،

وحرباً واسعة ، إنما تقدّمه لا يحدث الاّ بدفع ثمن كثير من الاخفاقات وكثير من الجروحات . إن المتألمين ، إلى أي فئة انتموا ، هم تعبير لهذا الحال القاسي والشريف معاً ... إنّهم يدفعون فقط لأجل السير قدماً ولانتصار الكل . انهم صرعى في معركة الشرف .

٤٣

اذاً هذه حقيقة يا رب ... ؟ بانتشار العلم والحرية أتمكّن أن أكشف له ولي الجوّ الإلهي حيث تحملني رغبتي الوحيدة في أن أغوص فيه . إذا ما استوليت على الأرض فاني أستطيع أن اتّحد بك ...

فلتكشف لنا المادّة ، التي نظر فيها الانسان وأشتغلها ، عن أسرار تكوينها وحركاتها وماضيها .

لتخضع أمامنا القوّات المسيطر عليها ولتطع قوتنا .

ليتجمّع الناس الذين غدوا أكثر عقلانية وأقوى في منظّمات غنيّة وسعيدة ، حيث الحياة ، وقد أحسن استعمالها ، أعطت مئة عوض واحد .

ليقدّم الكون لتأمّلنا رموز وأشكال كل تناسق وكل جمال .

... عليّ أن أفتّش وأن أجد .

المسألة تتعلّق ، يا ربّ ، بالعنصر الذي تريد أن تسكنه هنا .

المسألة تتعلّق بوجودك بيننا .

٤٤

فلنفتّش قليلاً اذا كان باستطاعتنا ان نهرب من القلق الذي رمتنا فيها مقدرتنا على التفكير، وذلك بمجرد تفكير أجود؟ ولهذا لنصعد عالياً حتى نسود على الأشجار التي تخبئ الغابة عنّا. أعني اذا ما نسينا لوقت تفصيل الأزمات الإقتصادية، والتوتّرات والصراعات الطبقية التي تغلق الأفق في وجهنا لنرتفع قليلاً حتى نرى في مجمله، وبدون ميل، سير التأنسن العام لخمسين وستين سنة خلت.

واذا ما وقفنا على هذه المسافة المؤاتية، ماذا نرى أولاً؟ وماذا يلحظ خاصة، لو كان وجوده حقيقة، ايّ ملاحظ آتٍ من النجوم؟

يُلاحظ حدثين أولين بدون اعتراض.

١) الاول هو أن التقنية حقّقت، في نصف قرن، تطوّرات لا تصدق، لا تقنية من النوع المشتّت والمحلّي، إنّما تقنية أرضية، ناشرة على الارض بكاملها شبكة تعهداتها المتشابكة بالبعض الآخر تشابكاً وثيقاً.

٢) والثاني هو أن العلم غيّر في كل الاتّجاهات، وذلك في الوقت عينه، والخطوة نفسها، وذات المقياس من التعاون والتحقيق الكوكبي (من الأدنى الى الشامل، وحتى الشمول المعقّد) نظرتنا المشتركة إلى العالم وقدرتنا المشتركة على العمل.

٤٥

ما هو الشيء الموجود في الألم الذي يدفعني بعمق اليك ؟

لماذا ارتعشت طرباً كما لو كنت أمام أجنحة ، عندما قدمت لي القيود ؟

آه هذا ، يا رب ، لأن العنصر الوحيد الذي أشتهيه من عطاياك هو عطر تأثيرك ووطأة يدك عليّ : أكثر من الحرية ونشوة النجاح . إنّ الّذي يسكرنا ، نحن الناس ، هو فرح وجود جمال سام يسيطر علينا . — هي النشوة أن نكون ممتلَكين.

مباركة اذاً تلك الإخفاقات التي تنزع الكأس عن شفاهنا.— والسلاسل التي تجبرنا على المضي حيث لا نريد .

مبارك الزمن المعدوم الشفقة واستعباده الدائم — استعباد الزمن الذي يسير رويداً ، ويسخط عدم صبرنا — الزمن الذي يسير سريعاً ، ويحمل الهرم الينا — الزمن الذي لا يتوقّف ، ولا يرجع البتّة .

مبارك الموت بنوع خاصّ ومبارك جزع وقعه في القوّات الكونية — بالموت تنقضّ قوة بطّاشة كالكون على أجسادنا لتطحنها وتُذيبها : جاذبية أقوى من أي توتر مادي ، تجذب نفوسنا بلا مقاومة نحو المركز الذي يناسبها . إن الموت يحملنا أن نضيع تماماً في ذواتنا ، ليدفعنا الى قوات الأرض والسماء . بهذا يخيفنا لآخر وهلة ... بهذا أيضاً للمتصوّف فيض من الغبطة .

إن عمل الله الخلاق لا يخفقنا فعلاً كطينة طيّعة ، إنه نار تحرك ما تمسّ وروح تحيي ... إذاً ونحن نعيش يجب ، نهائياً، أن نستسلم اليه ، أن نتمثّل به ، أن نتّحد به ؛ في هذا المقام يشعر الصوفي ، بين هنيهة واخرى ، بالنظرة الساحرة الحادّة ... اذا كان أحد يعرف بهذه المعرفة ويُحب ، تستولي عليه حمّى الخضوع العامل، والطهارة المجتهدة حتى الأمانة الكلّية، والاستخدام الكامل لقواه .

حتى يكون لنبضات النغم الأساسي صداها الكامل ، يطيع الصوفي لإشارات الواجب الإنساني ادقّها ، ولطلبات النعمة أخفاها .

— كي يستوعب القوة الخلاّقة ، ينمي فكره ويوسّع قلبه ويقوي عمله الخارجي — لأنه على الخليقة أن تشتغل ، اذا أرادت أن تخلق أكثر .

— اخيراً كي لا تفصله شائبة ، حتى ولو كانت ذرّة من ذاته ، عن الصفاء الجوهري ، يطهر عواطفه دون هوادة ، رامياً بعيداً أخفّ الكثافات حيث يمكن أن يتردّد الضوء ويخبو ...

٤٦

لا يقتصر الله على القداسة ليُظهر أكثر فاعليّة نفوذه الخلاق ، وهو يبث قوته . انه بنفسه يحلّ في عمله ليمكّن وحدته.

قاله لنا هو لا واحد آخر ، بقدر ما تتركز عليه عواطف النفس يستولي عليها ، وينفذ اليها ، ويأخذها ببساطته التي لا تقهر . بين الذين تشدّهم المحبة يظهر — يولد نوعاً ما — كوثاق جوهري لحبّهم .

هو الله شخصياً ، الّذي ينتصب في قلب العالم المبسّط — ووجه الكون المنظّم الذي تألّه هكذا هو يسوع المسيح الذي ، بجاذبية حبّه وفعّالية قربانه ، يجمع اليه رويداً رويداً كلّ قوّة الوحدة المنتشرة عبر الخلق ...

إن المسيح يُغنيني كلّياً بنظرته . بذات النظرة وذات الحضور ينفذ الى الذين يُحيطون بي والذين أحب . بفضله إذاً ، كما لو في محيط إلهي ، ألحق بالآخرين من داخلهم ، وأؤثر عليهم بكل ثروات حياتي .

إن المسيح يجمعنا إلى بعضنا بعضاً ، ويكشفنا الواحد الى الآخر . فما يعجز فمي أن يفهمه لأخي واختي ، يقوله أحسن مني . وما يتمنّى لهم قلبي بحرارة قلِقة عاجزة ، يمنحهم ايّاه ، اذا كان ما يتمنّونه صالحاً . وما لا يسمعه الناس بصوتي الضعيف لأنهم يصمّون آذانهم لئلا يسمعوا ، لي الوسيلة أن أسرّه الى المسيح الذي يردّده يوماً على قلبهم . اذا كانت الحالة هكذا ، يمكنني أن أموت مع مثالي ، ومكفّناً بالنظرة التي كنت أودّ اقتسامها مع الآخرين . إن المسيح يجمع ، للحياة الآتية ، الرغبات المخنوقة ، والأضواء الناقصة ، والجهود غير الكاملة أو الخرقاء إنما المخلصة.— الآن اطلق يا رب عبدك بسلام ...

يحدث أحياناً أن القلب الطاهر يميّز في داخله فرحاً خاصاً، مصدره من الخارج ومغمور بارتياح عظيم ، وذلك بجانب السعادة التي تؤمّنه في أشواقه ورغباته الفرديّة . هذا انعكاس الصحّة الجديدة على صغره الشخصي ، التي أفاضها المسيح بتجسّده على الانسانية . بالمسيح تشعر النفوس بحرارة ، لأنها تشترك بعضها مع البعض الآخر ...

انّما للحصول على قسم من هذا الفرح وهذه النظرة ، يجب ان يكون لهذه النفوس الشجاعة ، مسبّقاً ، كي تكسر فرديّتها الصغيرة ، وتتنازل عن شخصيتها ، نوعاً ما ، لتتركز على يسوع المسيح...

لأن هذه هي شريعة المسيح وهي صريحة : من أراد ان يتبعني ، ليكفر بنفسه .

الطهارة هي أساس الكفران بالذات والاماتة .

والمحبة بنوع أكثر ...

عندما يقصد الانسان أن يطبق بسخاء محبةَ الله والقريب ، يلحظ أنــه لم يعمل شيئاً بعد ، وهو يصلح وحدته الداخلية بانفصالات سخيّة . يجب أن تنكسف هذه الوحدة بدورها ، كما لو انها تعدم شخصيتها قبل أن تولد بالمسيح . انهم من الخالصين أولئك الذين ، إذ ينقلون ، بجسارة وخارجاً عنهم مركز كيانهم ، يجسرون أن يحبّوا آخر اكثر منهم ، حتى يُصبحوا نوعاً ما هذا الآخر ، أعني إنهم يجوزون الموت ليفتّشوا عن الحياة . من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها .

ثمن هذه التضحية يعرف المؤمن اكيداً، أنّه يربح وحدة أسمى من الوحدة التي تخلّى عنها. ولكن من يمكنه وصفَ الغمّ المتولّد عن هذا التغيّر؟ بين البرهة التي يقبل فيها أن يحلّ وحدته السفلى، والدقيقة الغابطة التي فيها يصل الى عتبة الكائن الجديد، يشعر المسيحي الحقيقي أنه يقوم على هوّة الانحلال والعدم...

تدفع ثمنَ خلاص النفس صدفةٌ أرادها الإنسان عن رضى. إنه يفرض أن نراهن بلا استثناء عن الارض بالسماء. يريد أن يُضحي بوحدة الحياة الأنانية التي نلمسها ونمسكها لنجاذف من أجل الله: «إن حبّة الحنطة إن لم تقع في الارض وتمت، تبقى مفردة».

اذاً عندما يكون الانسان حزيناً، أو مريضاً، أو محتضراً فلا أحدَ من بيننا، نحن الذين نراه، يستطيع التأكيد إذا كان ينقص في كيانه أو يكبر. ــ لأنه، تحت العوارض ذاتها وبالضبط يجذب المبدآن المتطرّفان المؤمنين بهما إمّا نحو البساطة أو نحو الكثرة: الله والعدم[1].

٤٧

يحقّ للانانيّة، عرقيّة كانت أو خاصّة، أن تطرب لفكرة العنصر الصاعد، بأمانة للحياة، إلى أقصى ما يُخبّئ من فريد

---

(١) يقول المؤلف في ما يتبع: «اهوال انحلال ابدي واعية» وهو يتكلم على الفناء نقيض الله.

وغير مشترك. وفي ذلك تحسّس صادق. انّما غلطتها الوحيدة تجعلها قليلاً قليلاً تضيّع الطريق المستقيم، إذ تخلط الفردية والشخصيّة. فالعنصر ينفرد في تفتيشه عن الانفصال قدر الامكان عن الغير. وهو يصنع هكذا، فانه يعود ويفتّش عن جذب العالم إلى الوراء، إلى الكثرة، إلى المادّية. في الحقيقة، انّه ينقص ويخسر. لكي نكون نحن بالتّمام وجب أن نتقدّم بالإتجاه المعاكس، وأن نتوجّه في طريق التآلف مع الكائنات، علينا أن نتقدّم نحو الآخرين. إن غايتنا ومنتهى إصالتنا ليست فرديتنا بل شخصنا؛ وهذا لا يمكننا ايجاده، من قبل تركيب العالم المتطوّر، الاّ باتّحادنا. لا روح بدون وحدة. دوماً القانون ذاته، من فوق إلى تحت. إن الأنا الحقيقية تنمو عكس الانيّة. على مثال الياء التي تجتذبه، لا يصبح النصر شخصياً إلاّ بشموله.

على أن هذا يصير بشرط أكيد وجوهري. لكي تتأنسن الذرّات البشريّة حقيقة، تحت نفوذ الوحدة الخلاق، يتبع، من التحليل الذي سبق، أنه لا يجب أن تلتقي كيفما كان. لأنه فعلاً يجب عمل وحدة مركزية، يجب ان يقوم الاتصال المتبادل بين مركز وآخر لا بطريقة أخرى. بين أشكال العمل المتبادل النفساني المتعدّدة التي تحرك «الكرة العقلية»، توجد قوّات الطبيعة المحوريّة المتداخلة التي يجب أن نختبرها، ونضبطها، ونطوّرها قبل أيّ قوّة أخرى إذا أردنا أن نسهم عملياً بتقدّم التطوّر فينا.

وهكذا وجدنا ذاتنا مساقين إلى مشكلة المحبّة.

ان الخبز السرّي مؤلّف من حبّات معصورة وحبّات مطحونة . وعجينته قد عجنت طويلاً . إن يديك ، يا يسوع ، قد كسرتاه ، قبل أن تقدّسه .

من يمكنه ، يا يسوع ، أن يشرح الشدّة التي احتملها الكون ، منذ الدقيقة التي وقع فيها تحت سيطرتك .

ان المسيح هو المهماز الذي يحث الخليقة في طريق الجهد ، والسموّ ، والنموّ . انه السيف الذي يقطع ، دون شفقة ، الأعضاء الرديئة أو الهرئة .

انه الحياة الأشدّ قوة ، التي تقتل بلا شفقة الأنانيات السفلى ، لتحوز على قوّة محبتها بالكليّة .

ليلج يسوع فينا ، يجب أن يكون الواحد تلو الآخر العمل الذي يشرح ، والألم الذي يقتل ، الحياة التي تنمي الانسان ليكون قابلاً للقداسة ، والموت الذي ينقص ليقدّس ...

الكون يقرقع . إنه ينغاق بألم في قلب كل « مونادة » كلما ولد جسد المسيح ونما . إن التجسّد ، الذي نشتهيه بقوة ، هو عملية مرعبة كالخلق الذي يفتدي ويتجاوز ، إنه يتم بالدم .

ليمتزج دم المسيح (الدم الذي يفاض والدم الذي ينتشر ، دم الجهد ودم الزهد ...) بتعب العالم ...

هذا هو كأس دمي ...

القلب الطاهر هو الذي يعرف أن يرى الله منتشرًا في أي مكان، من خلال محبته له فوق كل شيء. امّا بارتفاعه فوق كل خليقة حتى الادراك الشبه-مباشر للالوهة، وامّا بارتمائه — كما هو واجب كلّ انسان — على العالم ليكمله ويربحه، فان الصديق لا يعير انتباهه الاّ لله. فالأشياء بالنسبة إليه خسرت كثرتها السطحية. في كلّ واحد منها، على قدر مقياس صفاتهـا وحظوظها الشّخصية، يقدّم الله ذاته لسيطرة حقيقية. إن النفس الطاهرة، وهذا إنعامها الطبيعي، تتحرّك داخل وحدة سامية وفسيحة. بهذا الاحتكاك من لا يرى انها ستّتحد حتى الصميم من ذاتها؟ من لا يحزر عندئذ المساعدة القيّمة التي ستجدها تطوّرات الحياة في الكلمة؟

بينما يشتّت الخاطئ عقله ويجزئه باستسلامه الى شهواته؛ بسير معاكس، يَفلُت القديس من تشابك العواطف... وبالوقت ذاته يصبح لا مادياً. كلّ شيء بالنسبة اليه هو الله، الله هو كلّ شيء له، والمسيح هو بالوقت عينه الله وكلّ شيء. على موضوع كهذا الذي يغني ببساطته — للعين والقلب والعقل — الحقيقة وجمالات السماء والأرض، تتّجه قوى النفس وتتماس وتلتحم بنار عملٍ فريد، حيث يختلط الحسّ مع المحبّة. إن عمل الطهارة المميّز (عملها الشكلي حسب قول المدرسة) يوحّد اذاً قوى النفس الداخلية في عمل اهواء فريدة، جدّ وخيمة.

إن النفس الطاهرة أخيراً هي التي بسموّها فوق جاذبية الأشياء المتعدّدة والمشوّشة، تغطّس وحدتها (اي تخمر روحانيتها) بحرارة البساطة الالهية.

إن ما تفعله الطهارة داخل الكائن المنفرد، تحقّقه المحبة داخل جماعة النفوس. يأخذنا العجب (عندما نفكّر بعقل لم تخدّره العادة بعد) بالاهتمام العجيب الذي يبديه يسوع بتوصيته البشر أن يحبوا بعضهم بعضاً. المحبة المتبادلة هي وصية المعلّم الجديدة، الصفة المميّزة لتلاميذه، العلامة الحقّة لاختيارنا منذ الأزل، العمل الأساسي لكل وجود إنساني. سنُدان على المحبّة، بها يُحكم علينا أو نُبرّر...

٥٠

نتجاسر أن نفتخر أننا عصر علم. وحتى إلى حد ما، اذا اردنا فقط ان نتكلّم على فجر، فنحن على حق: اذا قوبل بالليل الذي سبق. شيء عظيم وُلد في الكون مع اكتشافاتنا وأساليب تفتيشنا. إنّي لمتأكد أن هذا الشيء لن يتوقّف ابداً. انّما اذا مجّدنا التنقيب، واذا أفدنا منه، فبأي مسكنة فكر واساليب، وبأية فوضى لا نفتّش بعد اليوم؟

هل فكّرنا جدياً بهذه الحالة الزريّة؟

مثل الفنّ، ويمكننا القول تقريباً مثل الفكر، ولد العلم تحت

وكأنه من الأمور الباطلة النابتة من الأهواء . فيض من العمل الداخلي فوق حاجات الحياة المادّية . فضوليّة خياليين وبطّالين. رويداً رويداً أعطته أهمّيته ومنحه عمله حقّ الوجود .

ونحن عائشون في عالم ، من العدل أن نقول ان العلم خلق فيه ثورة ، قَبلْنا دوره الإجتماعي ـــ وحتّى عبادته . ومع ذلك إننا نتركه ينبت صدفة ، دون اهتمام تقريباً ، كالنباتات البرّية التي تقطف القبائل البدائيّة ثمارَها في الغابة .

٥١

ونحن مستندون على أحسن فهم للجماعي ، يبدو لي ، أن هذه الكلمة يجب أن تفهم عندما نطبّقها على كلّ البشر دون تلطيف ولا مجاز . إن الكون هو حتماً وحدة متجانسة في طبيعتها وفي أبعادها . إنما هل يبقى كذلك اذا كانت دوراته الحلزونية قد خسرت مهما كان من درجة واقعيتها وثباتها ، بينا تصعد دوماً إلى أعلى؟ فوق ، لا تحت الطبيعة : هذا ما يمكن أن يكون كي يبقى متحداً بالباقي ، الشيء اللامسمّى بعد ، الذي يجب أن يظهره للعالم الإمتزاج التدريجي للافراد والشعوب والأجناس . أعمق من النظرة المشتركـــة حيث تظهر اهمّ من قوّة العمل المشترك ، حيث تبرز فيها بنوع من التوالد الذاتي ، نجد ، وعلينا أن ندرس ، الحقيقة عينها مؤلفة من الوحدة الحيّة للاجزاء المفكّرة .

ما القول سوى (وهذا أمر قريب من التصديق) أن قماشة الكون ، وقد صارت مفكّرة ، لم تكمل بعد دورتها التطورية — واننا بالتالي نسير نحو نقطة ما جديدة حسّاسة الى الأمام ؛ بالرغم من ارتباطاته العضوية التي ظهرت لنا انها موجودة في أيّ مكان ، لم يكوّن « الكرة الحياتية » الاّ مجموعة من الخطوط المتباعدة الحرّة الأطراف . تحت تأثير التفكير والانكماش الناتج عنه تطبق السلاسل ؛ وتحاول الكرة العقلانية أن تتكوّن في نظام واحد مطبق ، حيث يرى كلّ عنصر لذاته ويرغب ذات الأشياء كما يرغب الباقون ويشعر بها ويتألم منها مع الآخرين سويّة .

إنّ مجموعة الضمائر متناسقة ، تساوي نوعاً من الفوق — الضمير ، فتتغطّى الأرض بعشرات الآلاف من حبّات الفكر ، بل تتغلّف بغلاف مفكّر واحد ، حتى إنها لا تؤلف عملياً الاّ حبّة فكر واحدة فسيحة ، على القياس النجمي . ويجتمع تعداد التفكيرات الفردية ، ويتقوّى بعمل التفكير الواحد المتّحد .

هذه هي الصورة العامّة التي ، نحن مقادون فيها علمياً على وجه الشبه والتناسب مع الماضي ، أن نرى في المستقبل هذه الانسانية التي ، خارجاً عنها ، لا يفتح اي مخرج أرضي لمتطلّبات عملنا الأرضية .

إنك تعلم ، يا رب ، أن العالم لا يظهر لي أبداً بخطوط كثرته .

عندما أتأمله أشاهد فيه ، بنوع خاص ، خزّاناً لا حدودَ له ، حيثُ تتكوّم كمّياتٍ شاسعة ، لا تستعمل في معظمها ، القوّتان المتعاكستان من الفرح والألم .

إني أرى هذه الجملة المتردّدة والمضطربة ميداناً لتيّارات نفسانيّة قويّة مؤلفة من نفوس تجرها المحبّة للفنّ والأنثوي الابدي — المحبة للعلم ، وللكون المحكوم — محبة الاستقلال الفردي ، والإنسانية المتحرّرة .

وتلتقي هذه التيّارات ، من وقت إلى وقت في أزمات مخيفة. إنها تغلي في جهدها لتجد توازنها .

ايّ مجد لك ، يا الهي ، أي مجرى حياتي لإنسانيتك لو أنّ كلّ هذه القوة الروحية تتآلف فيك .

إني أحلم ، يا ربّ، أن أرى كلّ الديناميكية الموجودة في كثير من الكنوز غير المستعملة أو المفسودة قد استخرجت ، أن أسهم في هذا الشغل ، هذا هو العمل الذي اريد ان اكرّس له ذاتي .

على قدر قواي ، لأني كاهن ، أريد منذ الآن وصاعداً أن أكون أوّل من يتيقّن ممّا يحب العالم ، وما يجدّ في أثره ، وما

يتألم منه ؛ الاوّل كي أفتّش ، واتعاطف واتعب — الاوّل كي انفتح وأضحّي — أن أكون اوسع انسانياً وأنبل ارضياً من اي خادم آخر للعالم .

من جهة أريد أن أغوص في الأشياء ؛ واذا ما اختلطت بها ، استخرج منها ، بامتلاكها ، حتى الكسرة الأخيرة ، ما تحوي من حياة فائقة الطبيعة ، — حتى لا يضيع شيء — . وفي الوقت عينه ، أريد بتتميمي النصائح أن استرجع بالتخلي كلّ ما تحوي الشهوة المثلّثة من لهبة سماوية — أن أقدّس ، في الطهارة والفقر والطاعة ، القوّة الموجودة داخل المحبّة ، في الذهب وفي الاستقلال .

لهذا ليست نذوري وكهنوتي (هنا قوّتي وسعادتي) في روح قبول قوات الارض وتألّهها .

٥٣

دلّ ، يا رب ، كلّ مؤمنيك كيف تتبعهم أعمالهم الى ملكوتك في معنى حقيقي وكامل : اعمالهم تتبعهم . ولولا هذا ، لغدوا عملة كسالى لا يتبعهم عمل . أو إنه اذا ملكت الغريزة الانسانية عندهم تردّدات وسفسطات دين تنقصه أضواء ، يمكثون منقسمين ، متضامنين في اعماق ذواتهم ؛ وسيقال ان ابناء السماء غير قادرين أن يساهموا ، على الصعيد الإنساني ، بذات اليقين وبالتالي بذات السلاح مع ابناء الأرض .

٥٤

إن اكبر انتصار للخالق والمخلّص في نظرنا المسيحي، هو أنّه حوّل ما هو بالذات قوة شاملة من النقصان والفناء إلى عنصر جوهري في الأحياء. على الله، نوعاً ما، كي يدخل فينا نهائياً، أن يحفر فينا، أن ينحتنا، أن يعمل مكاناً. يجب عليه كي يحوّلنا إليه أن يُبدّلنا، أن يصهرنا من جديد، أن يكسر ذرّات كياننا. ولقد كلّف الموت ان يحفر هذه الفتحة المرغوب فيها حتى الصميم منّا.

وسيخضعنا للتفكك المنتظر. وسيضعنا في حالة مطلوبة عضوياً حتى تحلّ النار الالهية علينا. وهكذا يستحوز على قدرته السيئة للانحلال والتلاشي، عمل الحياة السامي. وما كان بطبيعته فراغاً وخلاء وعودة الى الكثرة، بامكانه ان يصير في كل وجود انساني ملأً ووحدة في الله.

٥٥

أن تأله جهدنا يسكب نفساً ثمينة في كلّ أعمالنا بفضل قيمة النيّة التي نضعها فيه؛ انما لا تعطي لأجسادهم رجـــاء القيامة. والذي نحن بحاجة اليه هو هذا الرجاء كي يصبح فرحنا كاملاً. وإنه لكثير أن نقدر على التفكير أنه، إذا أحببنا الله، فانّ شيئاً لا يضيع ابداً من حيّويتنا الباطنيّة، من عملنا،

ولكن ألا يصبح شغل افكارنا وقلوبنا وايدينا ذاته ـ نتائجنا ، أعمالنا ، فعلنا ـ هو ايضاً ، نوعاً ما ، مؤبداً ، مخلّصاً ؟

نعم ، يا ربّ ، إنه سيصبح هكذا بقوة اعتداد وضعته انت في قلب ارادتي ! اريد ذلك وانا بحاجة أن يكون هكذا !

أريد ذلك ، لأني احبّ حباً جارفاً ما يمكني عونك دائماً ان اقوده كل يوم الى الحقيقة . إني أحبّ هذا الفكر ، هذا الكمال المادي ، هذا الانسجام ، هذا التنوع الخاص من الحبّ ، هذا الشكل اللذيذ في البسمة أو النظرة ، كل هـذه الجمالات الجديدة التي تظهر لأول مرة ، فيّ او حولي ، على وجه الأرض الانساني ، احبّها كاطفال ، ولا يمكنني أن اعتقد انها ستموت تماماً في جسدها . لو كنت أعتقد أن هذه الأشياء تذبل ابداً ، هل كنتُ أعطيتُها الحياة ؟ على قدر ما أحلّل ذاتي ، على قدر ذلك أجد هذه الحقيقة النفسانية وهي أن أحداً لا يرفع إصبعه الصغير لأحقر عمل دون أن يكون محركاً باليقين ، أكثر أو أقل ظلاماً ؛ إنه يعمل بطريقة ضئيلة (أقلّه بطريقة معكوسة) لبنيان شيء نهائي ، أعني ، عملك انت ، يا الهي .

٥٦

فلنقلها مجدداً ، «الحق الحق اقول لكم ان الشجعان وحدهم يدخلون ملكوت الله المخبّأ ، من الآن ، في قلب العالم» .

لا يفيد من يقرأ بعينيْه هذه الصفحات ، أو غيرها ، نُشبهُها ، مكتوبة منذ ألفي سنة . من يفكّر أنه فهمها ، دون أن يضع يده على المحراث ، هو في وهم . التجربة واجبة .

يجب ، أمام غدٍ عديم الثبات عملياً ، أن نكون قد استلمنا ، في حالة خطرة داخلية حقّة ، للعناية (معتبرة كأنها حقيقية ، طبيعياً ، كمواضيع قلقنا) ؛ يجب في ألم المرض ، في توبيخ الغلطة المرتكبة ، في السخط على المناسبة الضائعة ، أن نكون قد ارغمنا النفس على الايمان ، دون تردّد ، أن الله قدير أن يغيّر هذا الشرّ إلى خير ؛ يجب ، بالرغم من بعض مظاهر مضادة ، أن نعمل دون حصر ، كما لو ان الطهارة والتواضع والنعومة كانت الاتجاهات الوحيدة حيث استطاع كياننا أن يتقدّم — ؛ يجب في ظلّ الموت ، أن نكون مجبرين الاّ نشيح بعيوننـا نحو الماضي ، ولكن ان نفتّش ، في قلب السواد ، عن حبّ الله — ؛ يجب ان نكون متمرنين طويلاً وبصبر في هذا الجهد ، اذا كنّا نريد ان نكوّن فكرة عن القوّة العاملة وعمل الايمان .

إلى الظافر الشجاع في الصراع ضدّ الثابت المغلوط والقوات المغلوطة ، وجاذبيات الماضي المغلوطة يبقى البلوغ إلى هذا الاختبار القوي الطوباوي (حتى إنه بمقدار ما نلج في المستقبل المتحرّك والمظلم ، على قدر ذلك ندخل في الله) .

٥٧

لانك لا تطلب مني شيئاً مغلوطاً أو غير قابل التحقيق. انما، بوحيك ونعمتك تجبر ما هو اكثر إنسانية فينا أن يتيقن اخيراً من ذاته. كانت البشريّة تغطّ في نومها — إنها تنام ايضاً — وهي منغمسة في الأفراح الضيّقة التي لحبها الصغير الضيّق. إن قوةً روحية عظيمة تنام في قعر كثرتنا، لا تظهر الاّ اذا كسرنا حواجز أنانياتنا وارتفعنا بصهر أساسي لنظرياتنا، على نظرة الحقائق الشاملة العادية التطبيقية.

يا يسوع، يا مخلّص العمل الانساني، الذي تعطيه معناه، — يا مخلّص التعب البشري الذي تقيّمه وتحييه؛ — كن خلاص الوحدة البشريّة واجبرنا أن نترك حقاراتنا وان نجازف، مستندين اليك، في بحر المحبّة المجهول.

في المسيح الكامل

٥٨

منذ أنْ وُلِدَ يسوع، حتى بلغ أشده وحتى مات، كلّ شيء آخذ في الحركة لأن المسيح لم يكتمل بعد. لم يجمع اليه بعد ثنيّات ثوبه اللحميّ والحبّي الأخيرة التي ينسجها له المؤمنون به. لم يبلغ المسيح السرّي كماله، ولا المسيح الكوني ايضاً،

الاثنان معاً هما كائنان وصائران ، وفي امتداد هذه الولادة موضوع التّولب الأخير لكلّ عمل مخلوق . المسيح هو نهاية التطوّر ، حتى الطبيعي ، للاشياء ؛ التطوّر هو شيء مقدّس .

٥٩

بين يديك استودع روحي ... بين اليدين اللتين كسرتا الخبز واحيتاه ، اللتين باركتا الاطفال وداعبتاهم ، اللتين ثُقبتا ، بين اليدين اللتين كأيدينا ، اللتين لا نعرف ان نقول ابداً ما سوف تعملان بالموضوع الذي تُمسكان ، اذا كانتا ستحطمانه او ستهتمان به . ولكن اهواءها ولا شك هي مملوءة صلاحاً ، وليس لها الاّ أن تضمنا بغيرة اشدّ — بين اليديْن الناعمتين والقويتين اللتين تبلغان حتى الصميم في النفس ، اللتين تصنعان وتخلقان — في اليدين اللتين يمر بينهما حبّ كبير يحسن ان نستودع روحنا ، خاصّة اذا كنّا نعذّب أو نخاف وفي هذا سعادة كبيرة وأجر كبير .

٦٠

اذاً ، أنت تريد كياني بكليته ، يا يسوع ، الثمرة مع الشجرة ، — الجنى زيادة على القدرة المكبوتة ، — القوة مع الفعل .

كي تهدئ جوعك وعطشك ، كي تغذي جسدك حتى كامل نموّه ، انت بحاجة ان تجد بيننا مادة يمكنك استهلاكها . ان هذا الغذاء المعدّ ليتحوّل اليك ، الحامل جسدك ، سأعده لك لتحرّر الروح فيّ وفي كل مكان .

— الروح ، بالجهد (حتى الطبيعي) لأعرف الحق ، وأعيش الخير ، وأخلق الجمال ...

— الروح ، بتمييز القوى السفلية والخبيثة ...

— الروح ، بعيْش المحبة الاجتماعي التي وحدها تتمكن من صهر الكثرة في نفس واحدة ...

أن نحرك ، ولو قليلاً ، ايقاظ الروح في العالم ، هذه هي تقدمة زيادة حقيقية وثبات للكلمة المتجسّد — ، هذه سانحة كي يتضاعف نفوذه حواليْنا .

٦١

إنك تشتغلني ، يا ربّ ، بكل ما يستمر ويضجّ فيّ ، بكل ما يمددني في الداخل ، ما يهيّجني وما يجذبني او يجرحني من الخارج . انك تكيّف طيني الذي لا شكل له وتروحنه ، انك تحولني اليك .

كي تمتلكني ، يا رب ، انت الذي هو أبعد من الكل وأعمق من الكل تقتبس وتؤلف بين شساعة العالم وذاتيتي .

اشعر اني احمل في الصميم من كياني جهد الكون بكلّيته .

لن اتهامل ، يا ربّ ، مع هذه الانفعالات المباركة . ولكن سأقدم ذاتي لها وسأساعدها بكل قواي .

أنا أعلم ان قوّة القربان المحيية تصطدم بارادتنا . اذا أوصدت باب قلبي أظلّ في الظلام ، — لا نفسي الفردية فقط ولكن الكون كلّه ايضاً ، بما ان الكون يعمل كي يسند تركيبي ويوقظ معرفتي — بما اني ايضاً أوثر عليه لأستخرج الاحساسات والأفكار ، وأدبية الأعمال ، وقدسية الحياة . — ولكن اذا قبلت : فحالاً عن طريق نيتي الخالصة ، تملأ القوّة الالهية الكون بمقدار ما يكون مركزاً عليّ . لأني أصبحت ، بفضل رضاي ، كسرة حيّة من جسد المسيح ، كلّ ما يؤثر عليّ يصلح أخيرًا أن يوسّع المسيح . ان المسيح يغزوني ، انا والكون خاصتي .

اني اشتهي ذلك ، يا ربّ .

ليكن قبولي دوماً اكثر كمالاً ، وأشدّ انفساحاً ، وأقوى عزماً .

ليظهر كياني دوماً أكثر انفتاحاً ، واشدّ شفّافية لتأثيرك .

ولأشعر هكذا بعملك دوماً اكثر قرباً ، وبحضورك اشدّ كثافة ، في ايّ مكان حولي .

فليكن . فليكن .

إذا نظرنا إلى العالم نظرة تطوريّة وروحيّة معاً ، فانه يحمل ، كما قلنا ، مسؤولية كبرى فقط ؛ انما يضيء ايضاً ، من بدء مراحل الايمان بالله الوضيعة ، بجاذبية لا تغلب . فعلاً ، لا يظهر عندئذ أن عدداً صغيراً من الخلائق المنعم عليها جدير بأن يريح في كل انسان حاجته الجوهرية الى الكمال والحبّ ، انّما كانعكاس لهذه الخلائق النادرة وبفضل مجمل الكائنات التي تخوض معه بذات الوقت عمل توحيد الكون . ان كلّ عنصر لا يتمكن من ايجاد غبطته أخيراً، الاّ في اتحاده مع الكل ومع المحور المنزّه اللازم لتحريك المجموع . وبالنتيجة، اذا كان ليس بامكانه أن يحيط نفسانياً كل كائن بالعطف المميّز والفيّاض الذي يميّز الحبّ الانساني ، يمكنه على الاقلّ ، لأجل كل ما هو كائن ، أن يغذّي هذه المحبة العامّة (الغامضة انما الحقّة) التي تجعله يحب في كل موضوع وأبعد من كل صفة اختباريّة ، الكائن بالذات . — الكائن أعني هذا الجزء اللامحدود والمختار من كل شيء الذي يصير رويداً رويداً جسداً من جسده تحت تأثير الله .

ان حباً كهذا ليس بالضبط شبيهاً بأية ارتباطات لها اسم في العلاقات الاجتماعية العادية . إن «موضوعها المادّي» ، كما يقول المدرسيّون ، هو جد واسع « وموضوعها الصوري» جدّ عميق ، حتى إنه لا يقدر أن يعبّر عن ذاته الاّ بكلمات معقدة من

تزاوج وعبادة . به يحاول كلّ تمييز ان يُمحى بين أنانيـة ولا مبالاة . كلّ واحد يحب ذاته ويتتبعها في تكميل الآخرين، وتمتدّ أقلّ حركة امتلاك ، بجهد ، لتبلغ أبعد ما في المستقبل ، ما سيصبح هو هو في كلّ الخلائق .

٦٣

منذ الآن نعرف كفاية (وهذا كثير) لنثبت ان تلمّس الحياة لا يكمل الاّ بشرط : وهو ان العمل كلّه يكمل تحت علامة الوحدة . هذا ما تريده طبيعة الانبثاق الحياتي الجاري . وخارجاً عن هذا الجوّ الوحداني المرتقب والمشرق ، لا تستطيع ان تصل المتطلبات الأشد شرعية الاّ الى الفوادح ، وهذا ما نراه بكثرة اليوم . وبالعكس يظهر كلّ حلّ في خلقه جيّداً كالآخرين ، وينجح كلّ جهد اقلّه في بدئه . اذا تتبعنا مشكلة الجنس ظهوراً ويقظة ومستقبلاً، ابتداءً من اصولها الأكثر حياة ، تقودنا هكذا حتى نعرف أن الجوّ الوحيد ، حيث يقدر العالم ان ينمو ويكبر ، هو جدّ الاندفاع والزهد بروح أخوية . وفي الحقيقة بينا ضميره وطموحه على ازدياد سريع ، فالعالم إلى انفجار إلـّم يتعلّم الحب . ان مستقبل الأرض المفكرة هو مرتبط أصلياً بتحوّل قوى البغض الى قوى محبة .

٦٤

ان ظواهر العالم السفلي تبقى ذاتها (الحتميات المادية ، — تبدلات الصدفة ، — شريعة العمل ، — تحرّكات الناس — وخطوة الموت) ولهذا من يتجاسر أن يؤمن، يدنو من دائرة من المخلوق حيث الأشياء ، وقد حفظت تركيبها العادي ، تظهر مصنوعة من مادّة جديدة . كلّ شيء يبقى ثابتاً في الظواهر ، ومع ذلك كل شيء يصبح مشعاً ، حيًّا ، محبًّا ...

هو المسيح يظهر عمل الايمان مولوداً في قلب العالم، دون أن يتعدّى على شيء .

٦٥

على قدر ما تمرّ السنون ، يا ربّ ، على قدر ذلك أظن أني أعرف أن اهتمام الإنسان العصري الكبير والسرّي ، فيّ وحولي ، هو ايجاد طريقة للتخلّص من العالم، أقلّ من أن يكون اقتتالا لامتلاكه . قلق شعورنا هو أنه مغلق علينا لا في المكان، ولكن أساساً في البراءة الكونية ! — التفتيش القلق عن مخرج ، أو ، بنوع أوضح ، عن موقدة للتطوّر ؛ هاك فان جزاء التفكير الكوكبي الكبير ، هو التعب الذي يثقل بشكل مظلم على نفس المسيحيين والوثنيين على السواء في العالم الحاضر .

إلى الأمام وما فوق فان الإنسانية التي تشعر بالتيّار الذي

يجذبها، تتحسّس الحاجة الى معنى وحلّ يكون باستطاعتها ان تستسلم لها بكاملها .

اذاً هذا هو الاله ، لا إله الكون العتيق فقط ، ولكن اله الكون المتكوّن الجديد (على قدر ما يُظهر فيك التصوّف الطويل المدى ، تحت شكل ولد بيت لحم والمصلوب ، تحت شكل المحرّك الاوّل والمحور الجامع للعالم بالذات) هذا الاله ، الذي انتظره ابناء عصرنا طويلاً ، أليس هو أنت بالحقيقة من تمثّله وتحمله ، يا يسوع ؟

٦٦

لنترك السطحيات . وبدون ان نترك العالم لنغص في الله . هناك ومن هناك ، فيه وبه نمسك كلّ شيء ونحكم كل شيء . كل الأزهار والأضواء التي وجب علينا أن نتركها يوماً لنكون أمينين للحياة ، سنجد هناك جوهرها وبهاءها . الكائنات التي يئسنا من البلوغ اليها أو السيطرة عليها ، هي هناك ، مجتمعة كلّها بنقطة جوهرها الأشد جرحاً ، الاكثر قابلية ، الأقوى غنى . في هذا المكان يمكن لأصغر ميولنا وجهودنا المجمَّع والمحفوظ أن يهزّ فجأة الكون في الصميم .

لنسكن في الوسط الالهي . نجد ذاتنا فيه في الأشدّ باطنية من النفوس ، والأشد ثباتاً من المادّة . نكتشف فيه ، مع مجموعة

كلّ الجمالات ، النقطــة الأكثر حيوية ، الأكثر حساسية والأكثر فاعلية من الكون . وفي الوقت عينه ، نختبر أن ملء قوى العمل والعبادة تترتّـب دون جهد في الصميم من ذاتنا .

لأنه ليس هذا كلّ شيء ، إن في هذا المكان المميّز تجتمع كلّ دوافع العلم الخارجية وتتناسق . باعجوبة مكمّلة ، يحسّ الإنسان المسلّم ذاته للوسط الالهي انه موجّه به وممدّد بقواه الداخلية بأمان يجنّبه ، كمن يلعب ، تهلكات عديدة بها اصطدمت المحاولات الصوفية .

٦٧

لمرة أخرى ، يا ربّ ، اسأل أيهما أثمن من هاتين التطويبتين : أن تكون كل الأشياء باتصال معك ؟ أو ان تكون شاملاً فأستطيع ان احتملك وأن ادركك في كل خليقة ؟

أحياناً يخيّلُ اليّ أني أجعلك أكثر جاذبية لعينيّ، بتعظيم جاذبية وجهك الإنساني فقط وطيبته فيما سلف .

آه ، حقاً ، يا ربّ ، لو كنت أريد فقط أن أحب انساناً ألا ألتفت نحو من أعطيتني في غواية ازدهارهم الحاضر ؟ أمهات ، أخوة ، أصدقاء وأخوات . أليس لنا حولنا منهم المحبوبون بقوّة ؟ ما عسانا نذهب فنسأل اليهوديّة التي لها ألفا سنة ؟ كلا ، انما ما

أدعوه، ككل كائن، بصرخة من اعماق حياتي وحتى بكلّ شغفي بالارض، هو ليس ان أحب خليقة شبيهة بي ولكن إلهاً أعبده.

٦٨

يا يسوع، يا سيّداً رائعاً بجماله وغيرته، الذي تغمض عينيك عمّا لا تستطيع حقارتي الإنسانية فهمه واحتماله، أعني حقيقة المحكوم عليهم، اني اريد أقلّه أن أُدخل في نظرتي العادية والواقعية للعالم أهمية الهلاك المهدّدة دوماً، لا لأخافك يا يسوع، انما لأكون لك بشغف.

صرخت اليك الساعة: لا تكن لي أخاً فقط، يا يسوع، — ولكن كن لي الهاً! الآن وقد لبست قوة الانتخاب العظيمة التي تضعك في قمة العالم كمبدأ الجاذبية الشامل والدفع الشامل، إنك تظهر لي حقاً كالقوّة الفسيحة والحيّة التي كنت افتّش عنها في كل مكان كي اتمكّن أن أعبد: نيران جهنّم ونيران السماء ليستا قوّتين مختلفتين، انما مظهران متضادان لقوّة واحدة.

لا تبلغني لهب جهنم، يا رب. ولا تبلغ واحداً من الذين احبّ...

لا تبلغ أحداً، يا ربّ، (انك تغفر لي، انا اعلم، هذه الصلاة الحمقاء). انما لتزداد، لكل واحد منّا الأضواء القاتمة، مع كل اللجج التي تكتشفها، الى ملء الحرارة التي للوسط الالهي.

ارفعي الرأس يا أورشليم . انظري الجمع الغفير ، جمع من يبنون ومن يفتشون . في المختبرات ، في الستوديوهات ، في الصحارى ، في المعامل ، في البوتقة الاجتماعية الضخمة ، هل تريتهم كلّهم هؤلاء الرجال الذين يشقون ؟ كل ما يختمر بواسطتهم من فنّ وعلم وفكر ، كل هذا هو لك . — ايه ، افتحي ذراعيك وقلبك واستقبلي ، كربّك يسوع ، موج المائية الإنسانية وفيضها . اقبليها هذه المائية — لأنه بدون عمادها تذبلين دون شوق ، كزهرة بدون ماء . وخلّصيها لأنه ، بدون شمسك تتبدّد بجنون سوقاً مجدبة .

اغواء العالم الكبير ، واغراء العالم الجميل اين هما الآن ؟

لا وجود لهما بعد .

تستطيع الأرض ، هذه المرّة ، أن تقبض عليّ بسواعدها الجبّارة . يمكنها ان تنفخني من حياتها أو أن ترجعني إلى ترابها . يمكنها أن تتبرّج لعينيّ بكل الجمالات . بكل القباحات ، بكل الأسرار . يمكنها ان تثملني برائحة لمسها ووحدتها . انها تحملني على السجود في انتظار ما ينضج في احشائها .

سحرها لا يؤذيني ابداً ، منــــذ اصبحت لي ، أبعد من ذاتها ، جسد الذي هو وجسد الذي سيأتي .

٧٠

عندما نقرأ الانجيل دون فكرة سابقة نلحظ أننا لا يمكننا أن نشكّ بأن يسوع أتى يحمل حقائق جديدة تغيّر مصيرنا ، لا حياة جديدة فقط اسمى من التي نعي ، انما في الحقيقة ايضاً قدرة طبيعية جديدة لتؤثّر على عالمنا الزمني .

بسبب جهل الطبيعة الدقيقة التي لهذه القدرة الممنوحة من جديد لثقتنا بالله ـ بالتردّد أمام ما يبدو لنا بعيد التصديق ، أو بالخوف من الوقوع في الاشراقية ـ كثير من المسيحيين يهملون هذه الناحية الأرضية من مواعيد المعلّم ـ أو أقلّه انهم لا يستسلمون بملء جسارة مَن لم يألُ جهداً في طلبها ، ذلك السيّد ، عندما كان باستطاعتنا سماعه .

لا يجب ، مع ذلك ، أن يجعل منّا خجلنا وحياؤنا فعلة طالحين ! ـ اذا امكننا أن يتأثر تطوّر العالم بايماننا بيسوع ، إنه لا يغفر لنا اذا تركنا هذه القوة ترقد فينا .

٧١

« غير قادر أن يختلط أو ان ينصهر ، بأي صورة كانت ، مع الكائن المخلوق الذي يعضد ، يُحيي ويربط ، إن الله هو في ميلاد ، وفي نموّ وفي نهاية الأشياء كلّها (...) .

«إن مشكلة العالم الوحيدة هي ضمّ المؤمنين الطبيعي إلى المسيح الذي هو الله . وفعلاً، إنّ هذا العمل الرئيسي يسيّر بدقّة وتجانس التطوّر الطبيعي .

« في بدء هذا التقدّم كان يجب عمل منزّه مطلق يطعّم — تبعاً لشروط سرّية ، انّما منظّمة طبيعياً — شخص الاله في الكون الإنساني ... « والكلمة صار جسداً » . وكان التجسّد . ومن هذا التماسّ الأول والأساسي لله مع طبعنا ، بقوة دخول الالهي في طبيعتنا ، ولدت حياة جديدة ، تعظيم غير مرتقب وامتداد طوعي لقوانا الطبيعية : النعمة . امّا النعمة فهي المائية الوحيدة الصاعدة في الأغصان عبر الجزع الواحد ، الدّم الجاري في العروق عبر القلب الواحد ، المجرى العصبي العابر الأعضاء على هوى الرأس الواحد ؛ والرأس المشعّ والقلب القويّ ، والساق المخصبة هو المسيح لا محالة .

التجسّد هو تجديد ، احياء كل قوى الكون وطاقاته ، المسيح هو الأداة ، المركز ، الغاية لكل الخلق الحيّ والمادي ؛ به كوّن كلّ شيء وتقدّس وأحيي . هـــذا هو تعليم القديس يوحنا الثابت والعادي، وتعليم القديس بولس (الأكثر «كونويّة» بين الكتبة القديسين) ، تعليم سرّي في جميع الطقسيّات الاكثر عظمة التي نردّدها والتي ستقولها الأجيال حتّى النهاية، دون أن تستطيع أن تخضع أو تقيّم منها المعنى السرّي والعميق ، مرتبطة كما هي بفهم الكون » .

هو الحبّ وحده يستطيع — وهذا ما يمليه الاختبار اليومي — أن يكمل الكائنات بما انها كائنات، وذلك بأن يجمعها لأنه وحده يضبطها ويربطها بعضها ببعض في الصميم. في ايّ برهة يبلغ محبّان امتلاك ذاتهما الامتلاك الأكثر كمالا، الاّ في تلك البرهة التي يعترفان بأنهما يضيعان فيها الواحد في الآخر. وفي الحقيقة ألا يحقق الحبّ حولنا في كلّ دقيقة في الزوجين وفي الجماعة تلك الحركة السحرية، تلك الحركة التي يقال فيها انها معاكسة في ان تكوّن الشخص شخصاً بين تجمّعه الى غيره وتآلفه معه؟ وما يعمله يومياً هكذا على قياس محدود، لماذا لا يردّده يوماً لأبعاد الأرض؟

الإنسانية، روح الأرض، تآلف الأفراد والجماعات، الوفاق الغريب للجوهر والكل، للوحدة والكثرة: حتى تأخذ، هذه الأشياء المسمّاة وهميّة ومع ذلك ضرورية حياتياً، جسداً في العالم، ألا يكفي ان نتخيّل ان مقدرة حبّنا تتطوّر حتى تعانق كلّيّة البشر والأرض؟

٧٣

يا يسوع انت خلاصة وذروة كل كمال انساني وكوني. ما من خطّ جمال، وسحر جودة، وعنصر قوة الاّ ويجد فيك

تعبيره الصافي وتكليله ... عندما امتلكك ، أضبط حقاً في موضوع واحد المجموعة المثالية لكلّ ما يمكن للكون ان يُعطى ويحلم . — الطعم الأوحد لكيانك العجيب أحسن استخراج وتركيب كل الأذواق الأشد طيبة التي تحويها الأرض ويوعز أنه يمكننا الآن، حسب رغباتنا ، ان نجدها الواحد بعد الآخر ، على الإطلاق فيك ، أنت يا خبزًا يحوي كل لذّة .

أنت يـــا ملء الكائن المخلوق ، أنت ايضاً ملء كياني الشخصي وملء كل الأحياء الذين يقبلون سلطانك . فيك وفيك وحدك يمكن لقوانا أن تلقي بنفسها وأن تسترخي كما في لجة لا حدود لها — ان تُعطي قياسها الكامل دون أن تصطدم بأي حدّ — أن تغوص في الحبّ والاستسلام مع التأكيد انها لا تجد في اعماقك تهلكة ايّ نقيصة ،قعر ايّ سفالة ، مجرى ايّ فساد.

— بك وبك وحدك ، يا موضوعاً لعواطفنا كاملاً وخاصاً ، يا قوة خالقة تفحص مخبأ قلوبنا وسرّ نموّنا — نفسنا يقظة ، مرهفة، كبيرة حتى الحدّ الأقصى من كوامنها .

اخيرًا تحت تأثيرك ، وتأثيرك فقط ، يذوب غلاف الانعزالية الجسديـّة ، والأنانية الإرادية التي تفصل المونادات وينشقّ ويهرع جمع النفوس نحو الوحدة الضرورية لنضج العالم .

وهكذا انت يا يسوع ، بزيادة ملء ثالث للاثنين الأخيرين ، مجموعة كل الكائنات التي تختبئ وتوجد متّحدة ابدًا في رباطات تركيبك الصوفية . في أحشائك ، يا ربّ ، احسن من اية معانقة ،

املك كلّ الذين احبّ، مضائين بجمالك وينورونك بدورهم باشعة (شديدة الفعاليّة على قلوبنا) اقتبلوها منك ويرجعونها اليك. ان مجموعة الكائنات القانطة التي أردت أن اوئثّر عليها لأنيرها وأقودها هي مجموعة هنا، فبك يا ربي، بواسطتك يمكنني أن المس كامن كلّ كائن — وأجعل ان يمرّ به ما اليه أتوق — اذا كنت اعرف ان اصلّي اليك واذا سمحت بذلك.

٧٤

إن المسيح هو مبدأ الوحدة الذي يخلص الخلق الأثيم في طريق العودة الى التراب. بقوة جاذبيته، بنور تعليمه الأخلاقي، بلحمة كيانه نفسه أتى يسوع يُعيد إلى أحشاء العالم تناسق الجهود واتجاه الكائنات. لنقرأ الانجيل بجسارة: فنستنتج ان اية فكرة لا تعبر لافهامنا عن عمل الكلمة الخلاصي أحسن من توحيد كل جسد في الروح الواحد...

لقد ألبس يسوع شخصه الجمالات الأكثر حسيّة، والأكثر عمقاً للفرد الإنساني. لقد جمّل هذه الانسانية بروائع الكون الأكثر سحراً، والأشد سيطرة وحلّ فينا كتأليف غير منتظر لكلّ كمال... بصورة انه وجب على كل أحد ان يراه ويتحسّس وجوده ليبغضه او ليحبّه.

٧٥

يا الهي عندما اقترب من المذبح لأتناول ، اسمح ان اميّز منذئذ التصورات اللامتناهية المخبّأة تحت صغر وقرب القربانة حيث تخبئ ذاتك . لقد اعتدت أن أرى ، تحت جمود هذه الكسرة من الخبز ، قوة مفترسة تبدلني—حسب تعبير اكبر علمائك، وهي أبعد من أن تتبدّل مني . ساعدني أن أنتصر على مـا يتبقّى لي من وهم يجرّب أن يحملني على الإعتقاد ، بأن معاطاتي معك محدودة وعابرة .

ابتدأت أن أفهم : إنك ، تحت الاشكال السرّية اي اولاً عبر « عوارض » المادة وبالتالي بواسطة الكون كلّه ، تلمسني بقدر ما يعود الكون ويوثر عليّ تحت تأثيرك الاوّل . وبالمعنى الحقيقي، إن الأذرع والقلب التي تفتح لي، ليست اقلّه سوى كل قوات العالم مجتمعة، والتي هي متداخلة حتى الصميم منها بارادتك بأذواقك، بطبعك، تنحني على كياني لتخلقه، لتغذيه،وتجرّه حتى الحرارة المركزية لنارك . إنك تقدّم لي حياتي بالقربانة ، يا يسوع .

٧٦

لا ، يجب ان لا نتردّد ، نحن تلامذة المسيح ، في ضبط هذه القوّة التي هي بحاجة الينا والتي نحن محتاجون اليها . بالعكس، خوفاً من ان نتركها تضيع وتهلكنا، يجب أن نشترك بمطامحها التي

وهي من جوهر ديني حق ، تحمل الانسان بقوة أن يشعر منذ اليوم بفسحة العالم وعظمة الروح ، وبالقيمة المقدسة لكل حقيقة جديدة . ففي هذه المدرسة يتعلّم جيلنا المسيحي ان ينتظر من جديد .

لقد تداخلتنا هذه النظرات طويلاً : تقدّم العالم، وخاصة العالم الانساني، ليس مزاحمة لله، ولا اتلافاً باطلاً للقوى التي نحن مدينون بها إليه . على قدر ما يصير الانسان كبيراً ، على قدر ذلك تصبح الإنسانية متّحدة ، واعية وسيدة قوتها . — وعلى قدر ما يصير الخلق جميلاً ، على قدر ذلك تصبح العبادة كاملة — على قدر ذلك يجد المسيح ، لامتدادات صوفية جسداً حرياً بالقيامة . وهكذا لا يمكن أن يكون للعالم قمّتان ، كما لا يكون مركزان للدائرة الواحدة . ان الكوكب الذي ينتظره العالم ، دون أن يعرف بعد لفظ اسمه ، دون أن يُقيّم جيّداً حقيقة سموّه ، دون ان يقدر على تمييز الاكثر روحانية ، الأكثر ألوهية من أشعته ، هو حتماً المسيح بالذات الذي نأمل . لنشتاق للمجيء الثاني ، ليس لنا الآ ان نترك قلب الأرض بالذات يخفق فينا فننصّره .

٧٧

اننا لا ندخل من جديد بالموت في مجرى الأشياء الكبير ، حسب الغبطة الحلولية ، انما نحن مأخوذون ، مغزوون ، مسيطر

علينا بالقوة الالهية المتضمنة في قوى الفوضى الشخصيّة — الحاضرة خاصّة في التوق الذي لا يقهر ، والذي يجرّ نفسنا المختارة على طريق مصيرها المُقبل كما تصعد الشمس حتماً البخار المتصاعد من الماء وتنيره . إن الموت يسلمنا بالكلية الى الله ، يجعلنا ننتقل اليه . عوضاً عن ذلك يجب أن نرتمي في الموت بحبّ كبير واستسلام لأنه ليس لنا ، عندما يأتي ، الاّ ان نترك الله يسيطر علينا ويقودنا .

٧٨

يا ربّ ، بما أني ما فتئت أفتش عنك بكل غريزة حياتي وحظوظها ، وما فتئت أُحلك في قلب المادة الشاملة ، ففي روعة الشفافية الشاملة والاستعار الشامل ستكون لي الغبطة أن أغمض عينيّ .

كما لو ان تقريب قطبي العالم الذي يحملنا ، الملموس وغير الملموس ، الباطني والظاهر ، واحتكاكهما قد أشعل كلّ شيء فاندلع ...

يا يسوع ، تحت شكل طفل صغير بين ذراعي امّه ، — بمقتضى شريعة الولادة العظمى — تمركزت في طفولية نفسي .

وبما انك اعدت ومدّدت فيَّ حلقة نموّك عبر الكنيسة ، انتشرت بشريتك الفلسطينية رويداً رويداً من كل الجهات ،

كقوس قزح متعدّد حيث كان وجودك يدخل ، بدون ان يخرب ، ويحيي اي وجود آخر حولي ...

كل هذا لأنك أخذت ، بحقّ القيامة ، الموضع الرئيسي لمركز شامل فيه يجتمع الكلّ وذلك في كون كان ينكشف لي في حالة اتّجاه .

٧٩

إن تنوّعات دعوتك لا عدّ لها ، يا الهي . ان الدعوات متنوّعة على الاطلاق .

لكلّ من المقاطعات ، والبلدان والطبقات الاجتماعية رسلها .

يا ربّ أريد أنا ايضاً ، بما قيّض لي ، ان اكون بكل تواضع الرسول (واذا امكنني القول) المبشّر بمسيحك في الكون...

أنعمت عليّ ، يا رب ، أن أحسّ أن تحت اللا إنسجام السطحي الوحدة الحيّة العميقة، التي رمتها نعمتك بكلّ محبة على كثرتنا القانطة ...

إني أحترق ، يا الهي ، أن أنشر هذا الوحي المضاعف الذي تنعم به عليّ وان احقّقه ألا وهو شمول جاذبيتك الالهية ، وقيمة عملنا الإنساني الداخلية .

إذا رأيتني أهلاً، يا ربّ ، فاني اكشف، لمن حياتهم لا قيمة لها ولا لون ، آفات الجهد المتواضع والمغمور اللامحدودة ، هذا

الجهد الذي بامكانه ، اذا كانت النيّة صافية ، أن تزيد على انعكاس الكلمة المتجسّد عنصراً جديداً ـ عنصر أحسّه المسيح وضمّه الى خلوده .

لقد كشفت لي دعوة العالم الجوهريّة ، ألا وهي أن يكتمل، في جزء مختار من كيانه ـ في ملء كلمتك المتجسّد .

لتستولي عليّ ، يا الهي ، انت الأكثر بعداً والأشدّ عمقاً من كل شيء، تقتبس وتضمّ شمول العالم إلى صفائي الذاتي .

إني ألحظ أن كلّ كمال ولو طبيعي،هو أساس واجب للتركيب الصوفي والنهائي الذي تبني بواسطة كلّ شيء . إنك لا تهدم الكائنات التي تتبنّى ، يا ربّ ، إنما تغيّرها مع المحافظة على كلّ ما عملته بها من صلاح أجيال من الخلق .

إن العالم بأكمله مركز وثائر في انتظار الوحدة الالهية . ومع ذلك يصطدم العالم بسور لا يمكن اجتيازه . لا أحد يتمكّن أن يصل الى المسيح، إذا لم يأخذه هو ويضعه فيه .

ان المونادات الخالدة تتّجه كلّها نحو المسيح .

كلّ ذرّة مهما كانت وضيعة أو ناقصة يجب أن تعاون ، اقلّه بتمنعها أو بانعكاسها ، على إكمال يسوع المسيح .

في شمول الكون ، الخطيئة وحدها لا محلّ لها .

ولمّا لم يتلاشَ الهالك ، من يمكنه أن يقول الكمال السرّي الذي يوفّره النقص الخالد لجسد المسيح .

على قدر ما ينقص «بالمسيح يسوع» أولئك الذين يضحّون ويتعذّبون ويهرمون بصبر، على قدر ذلك يجوزون العتبة الحرجة حيث ينعكس الموت حياة. وعلى قدر ما ينسون ذواتهم يجدونها كي لا يضيعوها ابداً...

يأخذ الكون شكل المسيح — ولكن بالسرّ الذي يكشف عن ذاته. انّما هو المسيح المصلوب!...

إن المسيح يُحبّ ذاته كشخص ويفرض ذاته كعالم.

٨٠

عندما يتسنّى لي أن أرى إلى حيث كانت تتّجه سحابة الجهالات الفردية والانسجامات الجزئية المبهرة، علمت ان كلّ هذا كان يعود فيرتكز في نقطة واحدة في شخص — شخصك، يا يسوع. كل حضرة تحملني على الشعور أنك بالقرب مني — كلّ احتكاك هو احتكاك يدك؛ — كل حاجة تنقل اليّ نبضة من إرادتك.

لكي يتلألأ الروح دوماً فيّ، كي لا أدخل في التجربة التي ترصد كل جسارة، كي لا انسى انك وحدك يجب ان نفتّش عنك عبر كلّ شيء، سترسل لي، يا ربّ، في الساعات التي تعلم، الحرمان والخيبة والألم...

أكثر من وحدة بسيطة هناك تبدّل يريد أن يتكوّن ، فيه كلّ ما يمكن للعمل الانساني ان يُحدث، هو ان يتهيأ ليقبل بكل وضاعة ...

قد يخيّل لبعض الذين يروْن الصوفي اللامتحرك ، المصلوب أو المصلّي أن حركته في غفوة ، او انها تركت الأرض ... خطأ . — لا شيء يحيا ويعمل بقوّة ، في العالم ، أكثر من الطهارة والصلاة ، معلّقتين كضوء لا يخبو ، بين الكون والله ، عبر شفافيتها وصفائها تصطدم الموجة الخالقة ، محمَّلة بالفضيلة الطبيعية وبالنعمة . هل العذراء مريم هي شيء آخر .

٨١

الحبّ المسيحي — المحبّة المسيحية .

بالاختبار أعرف جيداً ما يوقظه هذا التعبير ، اكثر الأحيان، من قلّة التصديق اللطيفة او الماكرة ما أن نلفظه أمام غـــير المسيحيين . وربّ معترض : أليس حب الله والعالم نفسياً ضرباً من المحال؟ فعلاً كيف يمكننا أن نُحبّ اللاملموس والشامل؟ وبعده، على سبيل المجاز ، اليس حب الخليقة كلّها وحبّ الخالق المطلق الشامل ، هذه الحركة الداخلية المألوفة بالنسبة للبختا (Bakhtas) الهنود «وللباياثيين» الفرس ولآخرين غيرهم، أبعد من أن تكون مسيحية بنوع خاصّ .

ومع ذلك مادياً ــ وبقساوة تقريباً ــ أليست الأحداث تحت نظرنا كي تبرهن لنا العكس ؟

فمن جهة ، مهما قيل ، فان محبّة الله (محبة حقيقية) هي ممكنة تماماً . لأنه لو لم تكن لفرغت كل الأديرة وكل الكنائس بين ليلة وضحاها . ولسقطت المسيحية الى الصفر لا محالة ، بالرغم ممّا يحيطها من طقوس وشرائع وسلطة .

ومن جهة أخرى ، إن هذا الحبّ هو من القوة في المسيحية أشدّ من اية جماعة أخرى . والاّ ، مع كل الفضائل والانجذابات العذوبة الإنجيلية ، لتركت شريعة التطويبات والصليب مكانها لنيل ايمان آخر (وبنوع اخصّ الى اي تعليم بشري أو أرضي) اكثر غزواً .

مهما كانت استحقاقات الديانات الأخرى ، وليشرحها كل على هواه ، فممّا لا شكّ فيه أن الموقدة الجماعية الأشدّ حرارة ، التي ظهرت على وجه الأرض ، تشتعل « الآن وهنا » في قلب كنيسة الله .

الفهرس

أنجزت مؤسّسة دكّاش للطباعة

طباعة هذا الكتاب في الثلاثين

من أيار ١٩٩٩

٥٥٧-٧,٠-٣٠/ ٥/ ٩٩

